

د. فـؤاد زكـريـا



مقامرة التاريخ الكبرى

على ماذا يراهن جورباتشوف ؟

الفصل الأول

المقدمات

لا اظن ان التنبؤ بالمسار الذي سيتخذه التاريخ ، حتى على المدى القريب ، كان في وقت من الاوقات أصعب مما هو في اللحظة الراهنة . اقول هذا وأنا على وعي تام بأن الاساليب العلمية لتكوين صورة معقولة عن الاوضاع المستقبلية قد تقدمت في الآونة الاخيرة تقدما هائلا ، حتى أصبح هناك علم قائم بذاته ، هو «المستقبليات»، له اساتذته المتخصصون ودورياته العلمية ومعاهده ومؤتمراته ، ويستعين بأحدث طرق البحث وأدق الحاسبات الالكترونية. ومع ذلك فان التحول الذي طرأ على العالم في الربع الاخير من العام الذي ودعناه أخيراء قد خرج بحدة عن كل توقع، وقفز بعنف خارج كل اطار كان يوضع فيه المسار المحتمل للتاريخ، وأغلب الظن أن الصورة التي سيذكرها المؤرخون عن عقد الثمانينات باكمله سيكون أغلبها مستمدا مما حدث في الاشهر الثلاثة الاخيرة من عامه الاخير، كما أن أحداث عقد التسعينات سوف تتحدد، الى مدى بعيد ، بما حدث في هذه الاشهر الثلاثة الحاسمة.

إن التاريخ ، الذى كان يبدو في نظر إنسان النصف الثانى من القرن العشرين مستأنساً طيعا ، يمكن حساب العوامل المتحكمة في تحولاته ، واستشفاف مساراته المقبلة بقدر معقول من الدقة، يبدو اليوم، ونحن نستهل العقد الاخير من هذا القرن العجيب، أشبه

بالحصان البري الجامح ، في قفزاته العشوائية وانطلاقاته المفاجئة واستعصائه على لجام العقل.

لقد تنبه الكثيرون في الشرق والغرب، بعد التقلبات الاخيرة الصاخبة، الى التشابه الواضح بين عام ١٧٨٩، عام الثورة الفرنسية، وعام ١٩٨٩، عام الثورة في المعسكر الاشتراكي، ووجدوا في كل من العامين مفترق طرق حاسما في تاريخ البشرية، ولكن هل خطر هذا التشابه ببال أحد ممن سجلوا على صفحات جرائد العام كله توقعاتهم عن العام الجديد ، عند نهاية عام ١٩٨٨ ؟ وهل طاف هذا التشابه بذهن احد في الوقت الذي كان فيه العالم يحتفل مع فرنسا، بمرور مائتي عام على ثورتها في شهر يوليو «تموز» الماضي؟ هل توقع أحد خلال هذه الاحتفالات التي لم يمض عليها سوى خمسة اشهر ، أن تصبح للعالم خلال الشهور القليلة التالية صورة مختلفة تماما عن تلك التي اعتدناها، وبنينا عليها جميع تحليلاتنا وتوقعاتنا خلال السنوات الاربعين الماضية؟ وهل تخيل أحد ممن عرضت عليهم شاشات التلفزيون صورة تشاوشيسكو في نوفمبر الماضي، وهو يخطب في اجتماعه الحزبي الاخير ، فيرفض في صلف وغرور وعناد كل التغييرات التي اجتاحت أوروبا الشرقية، ويستقبله ألوف الحاضرين (من يزعمون انهم ممثلو الشعب) بالتصفيق الحا· عند كل مقطع في خطابه، والوقوف إجلالا عند د·‍ له وخروجه- أقول هل تخيل أحد عندئذ أن هذا الزعيم الجبار سـ·‍حي في الوحل، ·ع نظامه كله، ممزقا بالرصاص بعد اقل من أسبوعين في أعقاب ث·رة شعبية بطولية ضحت بالكثير من أجل إزاحة الدا·‍ية في زمن قياسي؟

·كذا يبدو التاريخ، في أيامنا القليلة هذه ، أشبه بنهر ظل يسير في مج· هادئا ، ثم تحول فجأة الى شلال هادر يصم الاذان ، ولايملك كل من ·‍ف يتأمل جبرو·‍ت التدفق الصاخب بعد هدوء طويل، إلا أن يوقن بأن مجراه لن يعود أبدا، بعد هذا الشلال ، مثلما كان.

إن الحيرة هي السمة المميزة لكل محاولات التحليل التي تُقدّم للوضع الراهن في العالم بعد الاحداث العاتية التي عصفت بنظامه المستقر منذ أربعين عاما. وحين يكتب أعقل العقلاء عن هذا الوضع العالمي الجديد، فانه · يستبعد احتمال حدوث شئ يقلب تحليلاته وتفسيراته رأسا على عقب في اليوم التالي لظهور مقاله. لقد حلت المفاجآت محل التوقعات ، ·الده·‍ محل التنبؤات ، وانعدمت الرؤية حتى أمام من يملكون أعظم

المعلومات وأدق أدوات التحليل.

ولكن، فى قلب هذا التحول الخاطف الصاخب يقف رجل واحد فى العالم لا يبدو عليه أى قدر من القلق ازاء ما يحدث. بل إن خصومه، الذين تبدو التغييرات وكأنها تسير فى صالحهم، هم الذين يبذلون جهودا هائلة من اجل إخفاء توترهم وقلقهم . هذا الرجل هو ميخائيل جورباتشوف، الذى أسهم فى تغيير عالمنا بأكثر مما أسهم به أى فرد آخر في التاريخ المعاصر. وعلى الرغم من أن المثقفين في جيلنا قد اعتادوا ألا يبالغوا فى تضخيم دور الفرد فى التاريخ، وظلوا يؤكدون دائما أن الصانع الحقيقي للتحولات الكبرى فى مجرى العالم هو الجماهير، والقوانين الموضوعية التى تحكم تحركاتهم، وأن أى فرد مهما كانت مكانته لا يعدو أن يكون محصلة العوامل الاجتماعية الكبرى التى تتحكم فى مسار التاريخ. على الرغم من هذا كله، فان المرء لا يملك إلا أن يربط بين الثورة التاريخية الكبرى التى نعيش الآن أهم مراحلها، وبين شخص جورباتشوف على وجه التحديد، سواء نظرنا اليه على أنه فرد عبقرى، أم على أنه تجسيد لقوى تاريخية أوسع نطاقا وأعمق تأصلا منه.

وليس أدل على ذلك من تلك المفارقة الغريبة التى نلمسها فى تقييم خصومه له: فالد أعدائه، فى أميركا وانجلترا مثلا، يكيلون له المديح ويتغنون بحكمته وشجاعته ، فى نفس الوقت الذي يؤكدون فيه انه هو الخاسر الاكبر، وأن النظام الذي ينتمى اليه قد أنهار، وأن شعوبه قد اختارت التحول الى النظام البديل.

ومعنى ذلك أن الانسان المعاصر، سواء اكان ممن يعترفون بأن التحولات التاريخية في المعسكر الاشتراكى هى تحولات ايجابية، او كان ممن يرون انها تمثل النهاية الحتمية لهذا المعسكر ولكل المعركة الايديولوجية بين الرأسمالية والشيوعية ، ويؤكد في الحالتين أن هذا الرجل بعينه هو الذى يلعب دور البطولة على مسرح الاحداث الحاسمة فى عالم اليوم. ولكن السؤال الهام، والحاسم، يظل قائما: فاذا كان العالم كله يعترف لجورباتشوف بالفضل الاكبر- وربما الاوحد- فى ادارة عجلة التاريخ نحو هذا المنعطف الحاسم، فهل كان دوره يقتصر على البدء فى تحريك الاحداث ، والسماح للتطورات بأن تسير في مجراها بحرية، دون تدخل من الدبابات السوفياتية التى منعت من قبل تحولات كثيرة داخل المعسكر الشيوعى ، أم أن المسار الذي تتخذه

الاحداث، بعد هذه البداية العاصفة، هو أيضا من صنعه؟ هل كان جورباتشوف، مثل إله ارسطو ، هو «المحرك الاول» للاحداث، ثم سارت هذه الاحداث بعد ذلك في طريقها الخاص دون تدخل منه، وأفلت زمامها من بين يديه، أم أنه، بعد أن اعطى إشارة الانطلاق الاولى، ما زال ممسكا بالدفة؟

إن العالم كله يعترف لجورباتشوف بالامر الاول ، أعني البدء في تحريك الاحداث التي أدت الى تحول حاسم في التاريخ المعاصر، أما الامر الثاني، أعني مدى تحكمه في المسار اللاحق لهذا التحول ، فهو مدار خلاف كبير، من أصعب الامور في اللحظة الراهنة ، التي ترتفع فيها حرارة الاحداث الى درجة الغليان ، أن يتخذ المرء موقفا بين هذا الرأي وذاك ، لان وضوح الرؤية يحتاج الى وقت حتى ينقشع ضباب التقلبات العنيفة والمفاجئة.

ومع ذلك فان الرأي الذي أدافع عنه ، بقدر ما تسمح لي الاحداث الراهنة بالحكم ، هو أن جورباتشوف يقوم بمغامرة من أكبر مغامرات التاريخ، وفي كل مقامرة مغامرة، ولكن هل هي مغامرة محسوبة، أم انها متروكة للظروف؟ في اعتقادي أن جورباتشوف قد خاض هذه المقامرة بعد أن أجرى حسابات فيها قدر كبير من الدقة، ولكن لما كانت حركة التاريخ أعقد كثيرا من تلك الارقام التي تحملها الاوجه الستة لمكعب النرد «الزهر»، فمن المتوقع أن تخطئ تلك الحسابات في كثير من التفاصيل، ومع ذلك فان ما أتصور أن جورباتشوف توقعه حين خاض هذه المقامرة بوعي كامل هو أنه سيبدو خاسرا على المدى القصير، ثم يبدأ تراكم المكاسب على المدى الأطول ، هذه هي حساباته، كما أتصورها وإن كان احتمال الخطأ فيها يظل واردا على الدوام.

وفي اعتقادي أن معظم الاخطاء التي ترتكب في محاولة فهم الوضع الراهن لعالمنا المضطرب، بعد سلسلة الاحداث المفاجئة الاخيرة، ترجع الى أن المفكرين والمحللين ينظرون الى الاحداث التي تدور في اللحظة الراهنة كما لوكانت هي التي ستظل قائمة في المدى البعيد ، وهذا ينطبق على مؤيدي جورباتشوف ومعارضيه على حد سواء ، فمؤيدوه يقفون مشدوهين وهم يرونه يتأمل بهدوء انهيار امبراطورية المعسكر الاشتراكي من حوله ، ويعربون عن أسفهم لاختفاء معسكر قوي كان على الاقل يشكل توازنا مع المعسكر الرأسمالي الاشد عدوانية ، وكثير منهم يتمنون في قرارة أنفسهم لو كان جورباتشوف اكثر حزما، ولو

أحكم قبضته بدرجة معينة حتى لا يفلت منه زمام الامور ، بل أن بعض انصار الاشتراكية المتحمسين يصل بهم الامر الى حد اتهامه، سراً في معظم الاحيان، وعلناً في أحيان قليلة، بالخيانة والعمالة للرأسمالية العالمية ، وبأنه هو الزعيم الذي أخذ على عاتقه مهمة تصفية المعسكر الذي ينتمي اليه. أما خصومه فانهم لا يخفون سعادتهم لان شعوب المعسكر الشيوعي قد انقلبت عليه ، واختارت طريق الرأسمالية ، فما يحدث الان هو في نظرهم نهاية الخصومة بين المعسكرين والتضاد بين الايديولوجيين، لا من أجل تحقيق الوفاق بينهما، بل لصالح أحدهما وعلى حساب الاخر، وهم يؤكدون أن النتيجة الواضحة للتحول الحاسم في عام ١٩٨٩ هي الانتصار النهائي للرأسمالية ، وأن الاحداث قد اثبتت بصورة لا تقبل الجدل أن الرأسمالية هي «النظام الطبيعي» للمجتمع الانساني ، أما الشيوعية فهي عرض زائل أو «موضة» مزعجة ظلت مسيطرة بقوة الحديد والنار في مجتمعات معينة خلال بضعة عقود من السنين، لا تعد بمقياس التاريخ البشري شيئا يذكر، ولكن كان لابد لهذه الايديولوجية الشاذة أن تنتهي يوما ما ، وها هي ذي الاحداث تعلن افلاسها بصوت مدو ، لكي يعود البشر جميعا ، دون تفرقة بين معسكر وآخر، الى «نظامهم الطبيعي».

هذه كلها، في رأيي ، تحليلات متسرعة، قصيرة النظر، والمشكلة فيها كلها، سواء تلك التي يقوم بها أنصار جورباتشوف أم خصومه، هي انها تنظر الى الوضع الراهن على أنه الوضع النهائي ، وتحكم على المسار البعيد للتاريخ من خلال ما يجرى في المدى القصير، وفي اعتقادي ان العنصر المحسوب في تلك المغامرة الكبرى التي قام بها جورباتشوف ، هو أن ثمارها لن تظهر الا بعد فترة غير قصيرة من الصدمات والخسائر، ومن ثم فان من يصدر حكما على التجربة ينبغي عليه ألا ينخدع بتلك السلبيات الضخمة التي تقفز على السطح في المرحلة الاولى من تلك التحولات.

أن جورباتشوف يراهن رهانا كبيرا شديد الخطورة ، ولكنه ليس رهانا على أرقام مجردة تتساوى جميعا في احتمال ظهورها أو عدم ظهورها ، وانما هو رهان على الطبيعة البشرية، وعلى الاهداف التي ينبغي أن يسعى الانسان الى تحقيقها في المرحلة الحاسمة من تاريخه، فلابد في نهاية الامر من أن يثور هذا الانسان على القمع والاضطهاد وحشر المتشابه والمختلف في قالب واحد، ولكنه لابد أيضا أن يثور

على الظلم الاجتماعي الصارخ والتفاوت الحاد بين الطبقات والتسلح المهدد لاستمرار الحياة والتهديد المميت للبيئة التي ستعيش فيها أجيال الاولاد والاحفاد. على هذه الامور جميعا يراهن جورباتشوف، ولابد لكي يكسب هذا الرهان على المدى الطويل من أن يخسر قليلا أو كثيرا على المدى القصير.

ولكي أدلل على صحة هذا الافتراض الذي أحاول به أن أجعل هذا الموقف المعقد والمتقلب مفهوما بدرجة ما، وأن أضفي شيئا من المعقولية على أوضاع تبدو خارجة عن سيطرة كل عقل، دعونا نطرح سؤالا لم يطرحه أحد من قبل، ربما لانه يبدو سؤالا شديد السذاجة، مع أنه ينطوي في رأيي على كثير من مفاتيح اللغز: فما الذي أرغم جورباتشوف على أن يفعل ما فعل؟ لقد انتخب جورباتشوف رئيسا بعد تشيرنينكو، الذي كان ميتا حيا، وظل طوال حكمه القصير راقدا على فراش المرض. وتشيرنينكو جاء بعد أندروبوف، الذي كان بدوره يحمل منذ البداية بذور داء قاتل أودى بحياته بعد وقت قصير، كذلك فان أندروبوف جاء بعد بريجنيف، الذي كان في السنوات الاخيرة من حكمه جثة تتظاهر بانها حية، وكان واضحا أن قواه البدنية والذهنية لا تسمح له بأن يدير مزرعة للدواجن، لا معسكرا عالميا عظيم القوة فادح المسؤليات.

جاء جورباتشوف الى الحكم شابا في الرابعة والخمسين «بالقياس الي الموتى الاحياء الذين سبقوه»، وكان يكفيه أن يعطي الحكم مزيدا من الحيوية، ويسير في الخط الذي انتهجه سابقوه بهمة أعظم، ونشاط أكبر، حتى يكون قد أنجز شيئا هاما يميزه بوضوح عن أسلافه. ولكنه لم يقبل ذلك. وانما اختار عمدا أن يسير في طريق مختلف «نوعيا» عن ذلك الذي سار فيه أي زعيم سوفياتي آخر منذ لينين.

ولو كان جورباتشوف قد سار على درب أسلافه، مع إعطاء الحكم مزيدا من الحيوية والشباب، لما تعرض لشئ من المتاعب التي تعصف الآن بالمعسكر الشرقي. وأعتقد أنه كان يستطيع- نظريا- أن يفعل ذلك . فكل ما يقال الان عن أن هذا التغيير الذى أحدثه جورباتشوف كان حتميا بسبب المتاعب الاقتصادية الهائلة التي تواجهها الكتلة الشرقية، أو حاجة شعوب هذه الكتلة الى الحرية- كل هذا، وان كان صحيحا كل الصحة، لا يكفي لتفسير ما حدث، فقد ظلت هذه الشعوب محرومة من التعددية ومن حرية التعبير وحرية السفر والتنقل أكثر من

أربعين عاما، وبرغم ذلك فقد استطاع النظام أن يستمر، وحين كانت تقوم فيها انتفاضات شعبية، كما حدث فى المجر عام ١٩٥٦ وفى تشكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، كانت الدبابات السوفياتية تتكفل بسحق كل صوت معارض. وكذلك كانت المتاعب الاقتصادية واضحة منذ زمن طويل، ومع ذلك ظل النظام متماسكا أمام العالم، وكان بفضل قوته العسكرية يؤلف معسكرا جبارا يعمل له خصومه ألف حساب.

أجل، كان فى استطاعة جورباتشوف أن يكون امتدادا أكثر شبابا وحيوية، لعهد بريجنيف، ومهما واجه من متاعب فانها لن تكون أسوأ من تلك التي استطاع المعسكر كله تحملها طوال ستة عشر عاما من «عصر الجمود». وكان فى استطاعته. باستخدام أساليب القوة والتمويه السائدة من قبل، أن يسير في طريق مأمون، ويجنب نفسه كل ما يتعرض له الان من مشكلات. ولكنه لم يفعل، واختار عامدا السير في طريق التغيير الجذري، بكل ما ينطوى عليه من مخاطر جسيمة.

بل انه خطط بدقة واحكام لهذا التغيير الذي تعمد احداثه، ونظم خطواته بطريقة عقلانية: فبدأ بسياسة «الجلاسنوست»، اى العلانية أو المصارحة أو المكاشفة، ولاول مرة وجد الانسان، في الدولة الام داخل المعسكر الاشتراكي، أن في استطاعته التعبير بحرية تامة عنا يعانية من متاعب، ويوجه الانتقادات الحادة الى المسؤولين عن هذه المعاناة . دون أن يلحقه أذى أو ينفى الى أقصى الارض. وكانت تلك هي الخطوة الاولى، والمنطقية، نحو التحول الاساسى، وهي التى هيأت الجو عقليا ونفسيا لخطوات أخرى تهز الاسس التي قام عليها المجتمع. وكان من الطبيعى أن تمتد الخطوة الاولى فترة طويلة، تزيد عن ثلاث سنوات، إذ أن هذا هو ما تقتضيه التعبئة الذهنية للملايين من البشر، من أجل إزالة آثار عشرات السنين من الخوف من توجيه النقد، والجمود إزاء التغيير، والسلبية التامة في مواجهة صناع القرار.

وكانت المرحلة التالية، والحاسمة، هي إعطاء الضوء الاخضر للتغيير في كل بلد يدوره من بلدان المعسكر الاشتراكي: فقد أخذ يلمح الى عدم رضائه عن القيادات الجامدة، ويشير بعبارات واضحة الى أن القوات السوفياتية لن تتدخل فى أية أحداث تقع داخل هذا المعسكر. وسرعان ما التقطت شعوب هذه الكتلة، التى كانت من الأصل معبأة، . اشاراته الواضحة، وبدأت الاصنام الجامدة فيها تتهاوى واحدا بعد الاخر، فمنهم من انسحب في هدوء، ومنهم من نحي عن منصبة بعد اجماع

شعبي تجلى في مظاهرات عارمة، وآخرهم (حتى كتابة هذه السطور) أثر المكابرة، ولم يتزحزح عن موقعه إلا بعد أن سلط على أهله زبانية الشر الذين كان «يدخرهم ليوم مطير» كما يقول التعبير الاميركي الشائع، فكانت نهايته بنفس القسوة والدموية التي مارسها تجاه شعبه .

كانت حركة التغيير الهائلة في المعسكر الاشتراكي اذن متعمدة، وكان في استطاعة جورباتشوف أن يحتفظ بالاوضاع الجامدة السابقة، مدة أطول بكثير، ولكنه آثر أن يخوض مغامرة التحول الحاسم. ومع ذلك فان قوى التغيير حالما تنطلق من عقالها بعد طول احتباس ، يمكن أن تخرج عن السيطرة، وتتخذ مسارات غير محسوبة. فهل أفلت المارد من القمقم، وانقلب على من فتح له فوهة الزجاجة؟ وهل يسير تداعي الاحداث بشكل طليق وبصورة غير منضبطة منذ اللحظة التي أضاء فيها جورباتشوف الضوء الاخضر أمام قوى التغيير؟

ان الاجابة عن هذه التساؤلات بالايجاب أو السلب تكاد تكون مستحيلة في اللحظة الراهنة. ولكن الامر المؤكد هو أن جورباتشوف قام بمغامرة تاريخية كبرى، كانت له فيها حساباته الذكية بعيدة النظر، ولكن احتمالات الخسارة واردة في كل مغامرة، مهما كانت دقة الحساب فيها، لاسيما وأن أعداءه يعملون بكل طاقتهم من أجل إفساد هذه الحسابات. وكل ما يستطيع الكاتب أن يفعله، في مرحلة الاحداث الساخنة التي نمر بها الان، هو أن يحلل مختلف عناصر الموقف، ويقدر احتمالاته الممكنة، كيما يساعد القارئ على فهم الاحداث المتلاحقة بصورة أعمق، ويترك له مهمة استخلاص النتائج بنفسه.

وهذا بعينه هو ماسنحاول القيام به في الفصول التالية: فلابد من البدء بتقديم تفسير للتغييرات الحاسمة التي وقعت بالفعل، يليه محاولة لبحث تأثير هذه التغييرات بالنسبة الى مستقبل العالم الاشتراكي، والعالم الرأسمالي، والعالم الثالث، مع التركيز على الوطن العربي بوجه خاص. وأخيرا تأتي أصعب المحاولات وأعقدها، وهي المخاطرة باستخلاص مجموعة من التوقعات عن شكل العالم في عقد التسعينات، بعد أن تكون تلك التغييرات قد أخذت مداها ، وأصبحت حقائق راسخة في عالم الغد.

الفصل الثانى

لعنة التسلح

قلت فى الفصل السابق أن جورباتشوف كان يستطيع ، من الوجهة النظرية ، أن يحافظ على الاوضاع التي ظلت سائدة في الكتلة الشرقية منذ الخمسينات ، وفى بلاده قبل ذلك ، وأن أية صعوبات كانت تواجه أنظمة تلك البلاد فى المرحلة التى سبقت ثورته التاريخية مباشرة ، ما كانت لتتجاوز ما سبق أن مرت به من مشاكل طوال العقود السابقة . ولكن هذا الفرض النظري يعنى تجميد الاوضاع الي مالانهاية ، ويعنى الحكم على النظام الاشتراكى كله بالتحجر في وقت تجتاح فيه العالم ثورة علمية وتكنولوجية ستنتقل به خلال القرن القادم الى انماط من الحياة تبدو معها أنماطنا الحالية عتيقة ، وربما بدائية . ومن المؤكد أن عملية اختيار جورباتشوف زعيما للاتحاد السوفيتي كانت منذ البدء دليلا على قوة ارادة التغيير في هذا البلد الكبير . فمن المرجح ، إن لم تقع مفاجأة ، ان يكون هذا الرجل نفسه، أو واحد ممن يسيرون على نهجه ، هو الذى يقود بلاده عند مطلع القرن الحادى والعشرين . وهكذا ، اختير الرجل على أساس أن مهمته هى العبور إلى المستقبل ، ولابد أن الذين اختاروه كانوا على وعى بأن أوان التغيير قد آن ، وبأن هناك ظروفا هي التي تحتم هذا التحول الحاسم .

ويمكن القول اذن أن جورباتشوف، قد جاء الى السلطة وهو يحمل تفويضاً بإحداث تحول هام في أسلوب الحكم . غير أن الرجل تجاوز هذا التفويض بمراحل ، وكان العامل الرئيسي الذي ساعده على ذلك أن لديه رؤية كونية شاملة ، فالتغيير فى نظره يبدأ أولا من الداخل ، من بلاده ذاتها ، ثم ينتقل الى بقية البلاد الاشتراكية ، وبعد ذلك تمتد اشعاعاته حتما الى العالم الغربي الرأسمالى ، ومن ثم الى العالم الثالث . وسواء تمكن جورباتشوف من تجسيد رؤيته هذه في عالم الواقع ، أم أخفق فى ذلك لسبب او آخر ، فان الدلائل كلها تشير الى أن البشرية لن تستطيع أن تشق طريقها بامان فى القرن القادم إلا إذا تمكنت من وضع نظام جديد للعلاقات بين الدول ، يرتكز على تحقيق توازن بين قدرة الانسان على التحكم فى تصرفاته ، وضبط علاقاته مع الآخرين بطريقة حضارية (وهي حاليا قدرة متخلفة الى حد بعيد) ، وبين قدرته على التحكم في الطبيعة المادية وتسخيرها لخدمة اغراضه (وهى حاليا قدرة متقدمة الى حد هائل) .

فما هى اذن تلك الاسباب التي جعلت هذه الرؤية الجديدة ضرورة ملحة ؟ وما العوامل التي دفعت جورباتشوف الى تلك المقامرة الكبرى التي اذهلت الخصوم قبل الاصدقاء ، والتى قلبت جميع الحسابات التقليدية ، على صعيد السياسات المحلية والعالمية . رأسا على عقب ؟ لنبدأ أولا باعم الاسباب واهمها ، وأعنى به الحاجة الملحة الى إنهاء سباق التسلح . فقد فُرض هذا السباق الشيطانى على العالم فى اعقاب الحرب العالمية الثانية ، مع ان ميثاق الامم المتحدة الذي اعلن في نهاية تلك الحرب كان يشير بوضوح الى هدف انهاء كافة الحروب واقامة العلاقات بين الدول على اساس السلام الدائم . ولكن الحرب الباردة سرعان ما ابتكرت صيغة أخرى في العلاقات الدولية . وخاصة بين المعسكرين الكبيرين ، هى علاقة الخوف المتبادل ، والردع المتبادل : أي أن كلا منها يرهب الاخر ويمنعه من مهاجمته عن طريق تهديده بالدمار الشامل ، فتكون النتيجة استمرار السلام ، ولكنه سلام متوتر يهدد فى أي لحظة بالانفجار.

ولكي نكون موضوعيين فلنقل أن صاحب المصلحة في هذا الطابع الذي اتخذته الحرب الباردة كان الولايات المتحدة وليس الاتحاد السوفياتى .غير أن السوفيات لم يكن في استطاعتهم ان يقفوا مكتوفى الايدى ازاء التصعيد الاميركى للتسلح ، فاندمجوا في اللعبة

على الرغم من الاضرار الفادحة التي الحقها بهم التسلح المكثف .
وكان السياسي الوحيد الذي قرر أن يوقف هذه اللعبة بتخطيط بارع هو جورباتشوف.

وليسمح لي القارئ بأن اورد اقتباسين مطولين من مقال كنت قد كتبته منذ خمس سنوات (مجلة العربي- يناير ١٩٨٥) بعنوان «ايديولوجية التسلح». وسيدرك القارئ بسهولة سبب هذا الاقتباس حين ينتهي من قراءته:

«ان النظام الرأسمالي يستطيع ان يتحمل دون عناء التسلح ونفقاته الباهظة، بل ان انتاج السلاح وتطويره وتجديده المستمر من أهم العوامل التى تساعد على استمرار هذا النظام في الحياة وازدهار اقتصاده وتشغيل مصانعه وايجاد فرص عمل للعاطلين فيه. واما النظام الاشتراكى فان التسلح بالنسبة اليه عبء ثقيل يؤثر تأثيرا واضحا فى مستوى نموه. وذلك لان السلاح في هذه الحالة لا تنتجه شركة تحقق ارباحا هائلة من بيعه أو تصديره، وانما تنتجه الدولة التى تخطط اقتصادها بحيث يؤدي التوسع الزائد في أي ميدان الى التضييق فى الميادين الأخرى. وهكذا فان انتاج أسلحة باهظة التكاليف، فى المجتمع الاشتراكي، لابد ان تقتطع نفقاته من قوت الناس ومن ملبسهم ومسكنهم وسائر الخدمات التي تقدم اليهم.. ان التطوير المستمر للاسلحة يحدث اولا في البلاد الرأسمالية. والقنبلة الذرية، ثم الهيدروجينية ، والطائرات الاسرع من الصوت، كل ذلك بدأت به بلاد رأسمالية.. هذا التطوير المستمر لايعنى فقط مزيدا من الروح العدوانية لدى مبتكريه، بل انه موجه في الاساس نحو الخصوم، والهدف الاساسى منه- فى رأيي- ليس عسكريا فحسب، وانما هو ايضا ايديولوجى واقتصادي. فقد أصبح التوازن الدولي يحتم على كل من القوتين العظميين أن تلحق بالاخرى فى قدراتها العسكرية. وكل تصعيد في مستوى التسلح ونفقاته يعنى مزيدا من الارهاق لاقتصاد المعسكر الشرقي، ويعني اقتطاعا من ضرورات الحياة لدي شعوب هذا المعسكر من أجل هدف أهم: هو أن تكون هذه الدول أو لاتكون... وكما قلت ، فان الاقتصاد الاشتراكي لم تنشأ فكرته أصلا من أجل عالم تسوده المنافسات العسكرية وصراعات الحياة والموت. بل أن مؤسسيه تصوروا قيام تنافس سلمي بين الرأسمالية والاشتراكية ، وبنوا تنبؤاتهم بحتمية انتصار الاشتراكية

على اساس فكرة المنافسة السلمية».

ثم أضفت في موضع آخر من هذا المقال:

«استطاع المعسكر الرأسمالي بالفعل أن يوقف مسيرة المعسكر الخصم، بل ان يوسع الهوة المعيشية التي تفصله عنه. وكل من يزور بلدان المعسكر الاشتراكي ويقارنها بالبلاد الرأسمالية المتقدمة، لابد ان يصدمه الفارق الهائل في مستوي المعيشة بين الجانبين.. هذا القصور لايرجع الا الى الاستنزاف المتعمد الذي يفرضه النظام الرأسمالي على إقتصاد المعسكر الخصم في ميدان التسلح، الذى أصبح الان باهظ التكاليف. بل ان نقص الاستهلاك الذي يلاحظه الانسان العادى بسهولة في عالم لم تعد تقوم فيه حواجز بين المجتمعات ذات الانظمة المختلفة هو المسؤل عن عدم الاستقرار وعن تلك الثورات التي تشب من آن لآخر في بلاد المعسكر الاشتراكي ، كالمجر وتشيكوسلوفاكيا ، وأخيرا بولندا ، ونتيجة لتلك الثورات تفرض السلطات مزيدا من القيود ، فيؤدي ذلك إلى مزيد من الغضب المكتوم ، وهكذا تستمر الحلقة الجهنمية في تضييق الخناق على هذا المعسكر ، بعد أن نجح المعسكر الرأسمالي في فرضها على خصومه حتى يلعبوا لعبة الصراع الدولى بقواعده هو ، وعلى أرضه هو» .

هذا الكلام قيل منذ خمس سنوات ، ولعل القارئ قد ادرك انه يلقي ضوءا واضحا ، منذ ذلك الوقت المبكر ، على الكثير مما يقع اليوم من أحداث في الاتحاد السوفياتي وبقية بلاد المعسكر الاشتراكي .

ان الحرب الباردة اختراع اميركي صرف . وكل من عرف شيئا عن احداث الحرب العالمية الثانية يعلم أن اميركا لم تطلق في داخلها رصاصة واحدة طوال هذه الحرب ، على حين ان الاتحاد السوفياتي قد اكتسحت معظم اراضيه واحرقت حقوله وقراه وفقد اكثر من عشرين مليون قتيل ، ولقد تمكنت اجهزة الاعلام الاميركية من خلق صورة وهمية عن الخطر الزاحف من ارض السوفيات ، والذي يهدد بابتلاع العالم مالم يتم ردعه بقوة السلاح ، وانطلت هذه الاسطورة على الشعوب في اوروبا الغربية وفي اميركا بوجه خاص ، مع انها لم تكن الا اكذوبة كبرى . واغلب الظن ان مروجيها انفسهم كانوا يعلمون ذلك ، ولكن لهم مصلحة مؤكدة في تثبيتها في الاذهان . وذلك لان الشعب السوفياتى مازال حتى هذه اللحظة ، وبعد مضى خمسة واربعين عاما على انتهاء تلك الحرب ، يعيش الامها ومرارتها . واذا كانت فنون الشعوب وادابها خير شاهد على نفسياتها ، فمن السهل ان يلاحظ المرء ان فظائع

الحرب العالمية الثانية مازالت حية بقوة في وعي الشعب السوفياتى ولا وعيه معا ، بدليل انها هي الموضوع الذي تدور حوله نسبة كبيرة من الافلام السينمائية والاعمال الادبية السوفياتية حتى اليوم ، وهو أمر يثير في كثير من الاحيان دهشة بالغة لدى مشاهدي هذه الاعمال وقرائها من الاجانب .

وهكذا فان العامل المادي ، المتمثل في الاعباء الاقتصادية الفادحه. والعامل المعنوى ، المتمثل في الذكرى الاليمة والحية لاهوال الحرب الاخيرة ، كليهما يؤكد ان اسطورة « الخطر الروسي » على الغرب ، وعلى العالم ، لم تكن الا محاولة بارعة لتبرير سباق التسلح ، الذى يؤدي الي تشغيل المصانع وتخفيف البطالة وانعاش الاقتصاد في بلد رأسمالى، و« يبرمج » الرأى العام في اتجاه يساعده على دفع الضرائب المتزايدة التي تقتضيها ميزانيات التسلح.

ولقدكانت ذروة التصعيد في سباق التسلح هي ذلك البرنامج الشيطانى الذي عرف باسم « حرب النجوم » والذي يستهدف اقامة نظام لتدمير صواريخ العدو بأشعة الليزر في الفضاء قبل وصولها الى اهدافها ، وكان واضعو هذا النظام فى عهد « الرئيس الكاوبوى» رونالد ريجان مؤمنين بأن خطتهم الجهنمية لن تجلب لهم الا المكاسب :

فهى اولا تضمن انفاق عشرات المليارات كل عام على هذا البرنامج وحده . بالاضافة الى ما ينفق علي برامج التسلح وبرامج الفضاء الاخرى ، وتحقق انتعاشا هائلا لمجموعة ضخمة من الشركات المرتبطة به على نحو مباشر أو غير مباشر . ومن جهة اخرى فسوف يكون السوفيات مرغمين على التحرك لمواجهة هذا البرنامج ، وعندئذ تكون النتيجة إحد أمرين : فلو نجحوا سيكونون قد أرهقوا اقتصادهم ، الذى هو اصلا غير مهيأ لذلك ، الى حد يبذر بذور الثورة فى تلك المجتمعات التي سيصل مستوى معيشتها عندئذ الى الحضيض . ولو اخفقوا فسوف ينفرد الاميركيون بهذه الميزة الاستراتيجية الهائلة ، ميزة القدرة على تدمير صواريخ العدو وهي في الفضاء الخارجي ، مما يجعل أيديهم طليقة كيما تعبث بالعالم كيفما شاءت ، ويضع حدا لوضع التنافس العسكري المتكافئ الذي ساد منذ الحرب العالمية الثانية . وفى اعتقادى الخاص أن هذا العامل بالذات كان له دور أكبر بكثير مما يتصور معظم الناس فى تحديد الاتجاه الذي سارت فيه سياسة جورباتشوف منذ بداية حكمه . فقد فرضت عليه السياسة الأميركية فى

عهد ريجان أن يختار بين أمرين كليهما مر : فاما ان يدخل في منافسة ستقضى علي البقية الباقية من قدرة اقتصاد بلاده والكتلة الشرقية كلها علي الصمود ، وإما ان يتراجع عن المنافسة ويترك الخصوم طلقاء يتحكمون في عالم الغد كما يشاءون .

وكان القرار الذكي الذي اختاره ، والذي اعتمد فيه على تراث النزعة السلمية وكراهية الحرب المتأصل في بلاده ، وعلي مخاوف الاوروبيين من أن تكون بلادهم هي الساحة الاولي لاية حرب نووية بين العملاقين - كان هذا القرار هو أن يشن حملة سلام كبرى ، يرغم فيها صقور التسلح في الولايات المتحدة على التراجع التدريجي رغم انوفهم .

كان الاسلوب الذي اتبعه جورباتشوف في ابطاء قطار التسلح الذي كان يزداد اندفاعا عاما بعد عام ، اسلوبا بارعا بحق ، وهو يستحق في رأيى دراسة متعمقة يقوم بها المتخصصون في العلوم السياسية

وفي فن التفاوض بوجه خاص ، بوصفه نموذجا فريدا للطريقة التى يمكن بها إرغام عملاق جبار على التخلي عن مواقفه وقبول مواقف الخصم دون ان يتمكن من التهرب او المقاومة . ويمكن تلخيص هذا الاسلوب على النحو الاتى : كان جورباتشوف يبدأ (ودائما كان هو البادئ) باقتراح في ميدان نزع السلاح يثير تعاطفا شعبيا على اوسع نطاق ، وبخاصة في اوروبا ، كعقد معاهدة لخفض عدد الصواريخ بعيدة المدى ، أو تدمير الصواريخ المتوسطة « التي تخشاها اوروبا بوجه خاص » . وبالطبع يكون رد الفعل الاميركي المباشر هو الرفض ، وعادة « يكون » هذا الرفض مصحوبا بحجة تبرره ، مثل ضرورة التفتيش على الصواريخ في مواقعها ضمانا لعدم الخداع ، وحين يضع الاميركيون شرطا كهذا ، فانهم يعلمون جيدا أن الجانب السوفياتى ، الذي ظل دائما يخشى التغلغل والتجسس الاميركى في بلاده ، سيرفضه حتما . ويظل جورباتشوف يلح ، ويظل الاميركيون مصرين على شرطهم ، حتى يرسخ هذا الشرط في اذهان العالم.

وفجأة يعلن جورباتشوف قبول هذا الشرط ، ولايجد الاميركيون مفرا من توقيع المعاهدة بعد أن يكونوا قد فقدوا ذريعة الرفض امام العالم اجمع . وبالمثل فان مشروعات كثيرة لنزع السلاح كانت تصطدم دائما برفض اميركى مبنى على شروط مثل ضرورة الاقلال من حجم القوات التقليدية السوفياتية في اوروبا . وبعد ان يرسخ هذا الشرط في اذهان

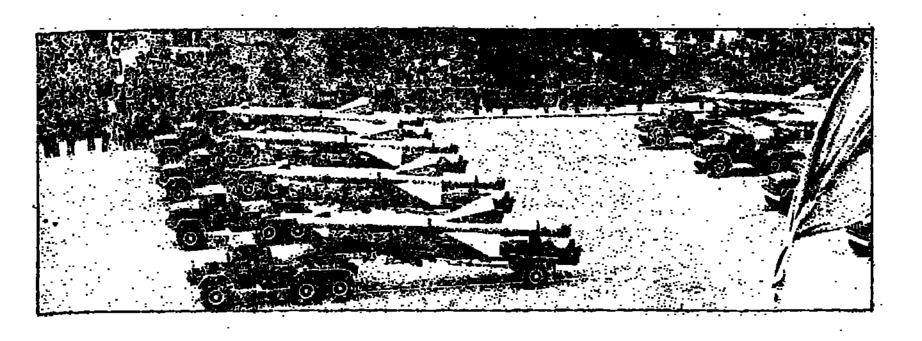
العالم ، يعلن جورباتشوف فجأة عن خلخل كبير في قواته واسلحته التقليدية ، فيسقط في يد المتشددين ، ولايملكون الا الاستجابة لطلبه.

ولقد كان يبدو ان جورباتشوف لايقدم ، في مسالة نزع السلاح ، الا التنازلات ، وانه يستجيب دائما للشروط الاميركية . ولكن الامر الذي ينبغي ان يتنبه اليه من ينتقدونه على هذه التنازلات ، أن الهزيمة في هذا الميدان انتصار ، والضعف فيه قوة . فلو وقف السوفيات بدورهم موقف التشدد لكان معنى ذلك تصعيد سباق التسلح ، وتبديد موارد هائلة يحتاج اليها اقتصادهم المخطط مركزيا اشد الاحتياج ، على صنع موديلات جديدة من الاسلحة سرعان ما تصبح عديمة الجدوى بعد ظهور « جيل » الاسلحة الاحدث منها . اما التنازل ، الذي يبدو في ظاهره هزيمة ، فهو في حقيقة الامر انتصار كبير ، اذ أنه يرغم الخصم على التراجع وقبول الشروط التي وضعها هو ذاته ، ويضعف اقتصاد الخصم الذي ينعشه التسلح المكثف ، بينما يقوى اقتصاد الطرف المتنازل ، فيجني من هذا الضعف الظاهري مزيدا من القوة .

بمثل هذه الاساليب البارعة استطاع جورباتشوف ان يزيل بالتدريج وهم « الخطر السوفياتي » الذي رسخته اجهزة الاعلام الغربية ، والاميركية بوجه خاص ، في اذهان الناس في العالم غير الاشتراكي ولقد كان ذلك الخطر المزعوم وهما بالفعل ، لا لان السوفيات ملائكة ، بل لانهم اكثر شعوب الارض معاناة من ويلات الحروب ، فضلا عن الاستنزاف الذي لايتحمله اقتصادهم . ولكن هذه الاسطورة كانت ضرورية لكي تقوم الاحلاف العسكرية ، وتعمل مصانع الاسلحة بكامل طاقاتها ، وتهنأ الحياة بفضل تجارة الموت.

كل هذا بدده جورباتشوف بافعال واقعية ملموسة . ولكم حاول المتشددون التشكيك في هذه الافعال ، ولكنه كان يثبت جديته بمبادرات متجددة بلا انقطاع . كانت قصة الذئب والحمل تتكرر، ولكن بطريقة معكوسة . اذا كان الحمل في هذه المرة واعيا ، فلم يسمح للذئب بأن يلتهمه ، بل لم يعطه فرصة اتهامه بتعكير الماء الذي يشربه .

وما أن انقضت سنوات قلائل من حكم جورباتشوف ، حتى اختلفت تماما صورة « الدب الروسي » المسلح حتى الاسنان ، والمتأهب دائما للعدوان ، واصبحت شعوب العالم مقتنعة بان جورباتشوف يريد بحق سلاما شاملا ، ويقرن كل ما يقول في هذا الصدد بالافعال . وكان امتناعه عن التدخل في احداث اوروبا الشرقية الاخيرة ، في جانب



سباق التسلح المجنون نزف موارد الاتحاد السوفيتى لعشرات من السنين

منه، تعبيرا عن الرفض النهائي لسياسة حل المنازعات بالقوة المسلحة، وتمسكا بالصورة السلمية التي رسمها بصبر وحرص شديدين طوال السنوات السابقة . بل أن اميركا والاتحاد السوفيتي تبادلا الادوار في الشهر الاخير من العام الذي انقضى : اذ تدخلت الجيوش الاميركية تدخلا سافرا في بنما ، وساقت من اجل ذلك حجة لا تختلف عن حجج عتاة الاستعماريين في القرن التاسع عشر ، على حين ان القوات السوفياتية رفضت اطلاق رصاصة واحدة في اوروبا الشرقية ، بل رفضت التدخل الذي اغرتها عليه اميركا وفرنسا ، ضد الحاكم الطاغية في رومانيا ، ولم تقع في الفخ ، واصبحت صورة المعتدي ملتصقة ، في نظر العالم ، باميركا وحدها .

في هذا الجو ، يحاول صقور التسلح ، مثل ديك تشيني ، وزير الدفاع الاميركي ، ان يعودوا من آن لاخر الى عزف النغمة القديمة ، ولاسيما حين يقترب موعد تحديد ميزانية التسلح ، ولكن صيحاتهم لم تعد تجد من يستمع اليها . ومن المؤكد إن أي حديث عن « حرب النجوم» قد أصبح في ايامنا هذه صوتا نشازا وسط جو التهدئة والتفاهم الذي اشاعته سياسة جورباتشوف وانعشت به الامال في سلام دائم.

ويكاد المرء يلمح في تصريحات المسؤولين الاميركيين نوعا من الحرص المكتوم على بقاء حلف وارسو العسكري ، على الرغم من انه هو الحلف المناوئ لهم . اذ كيف يمكن تبرير المبالغ الضخمة التي تستقطع كضرائب من المواطن الاميركي من اجل صنع السلاح ، مالم يكن هناك حلف مضاد يصوّر للناس على انه مصدر خطر دائم ؟ لقد ظلت الاستراتيجية الاميركية تستهدف مواجهة حلف وارسو والتفوق عليه . ولكن حين ظهرت بوادر لحل هذا الحلف او تغيير طبيعته العسكرية ، بدأ القلق ينتاب واضعي هذه الاستراتيجية من الا يجدوا امامهم « خصما » يتسلحون من اجله . وهكذا فان حلف وارسو هو ، بالنسبة الى العسكرية الغربية ، خصمها ومبرر وجودها في آن واحد . ومن اجل هذا كان المرء يستشعر ، في تصريحات بعض القادة الغربيين ، نغمة قلق خفي من الاحداث الاخيرة التي يفترض انها كانت انتصارا كبيرا لهم .

لقد كان سباق التسلح إذن عاملا حاسما في ذلك التغيير الثوري الذي ادخله جورباتشوف على سياسة بلاده ، وكان في الوقت ذاته من العوامل الهامة التي ادت الى سلسلة الانقلابات المفاجئة في بلدان المعسكر الاشتراكي ذلك لان اعباء التسلح كانت توزع على الجميع ، وكان لكل بلد اشتراكي نصيبه من تلك النفقات الباهظة التي تتكلفها عملية مجاراة التطور السريع والمتلاحق في صنع ادوات الدمار . ولم يكن اسهام هذه الدول في اعباء التسلح يتخذ بالضرورة شكل المشاركة في صنع السلاح او في الميزانية العسكرية ، بل كان في احيان كثيرة يتخذ شكل تقديم منتجات وسلع من انتاجها الى دول اخرى في المعسكر نفسه، تعويضا لهذه الاخيرة عن الخسائر التي تتكبدها في صنع السلاح، وهكذا كانت الخسارة تعم الجميع ، ويترتب عليها حتما تدهور عام في الاقتصاد ، وانخفاض في مستويات المعيشة ، وافتقار مواطني اي بلد معين لكثير من المواد الاساسية التي يعلمون ان بلادهم تنتجها بوفرة .

ومع هذا كله فان تأكيدنا لاهمية سباق التسلح في تفسير الاحداث الاخيرة سواء منها « هجوم السلام » الكاسح الذي يقوم به جورباتشوف ، او تمرد البلاد الاشتراكية العنيف ضد انظمتها – هذا التأكيد ، مع اهميته القصوى ، لا ينبغي ان يحجب عن اذهاننا مجموعة أخرى من العوامل الهامة . ذلك لان التركيز على الاضرار المترتبة على التسلح المرهق ، قد يولد لدى القارئ اعتقادا بان سوء الاوضاع الاقتصادية

وربما الاجتماعية والسياسة ايضا ، كان أمرا مفروضا من الخارج على هذا المعسكر ، وبان انظمة هذه البلدان كانت ضحية خطة ذكية رسمها المعسكر المضاد . ولكن هذه النتيجة ابعد ما تكون عما ارمي اليه . فحقيقة الامر انه كانت هناك ،الى جانب العامل الخارجي السابق ، اخطاء داخلية فادحة ، وكان النظام الاشتراكي يتعرض لاسوأ تطبيق والنظم تشوية يمكن تصوره ، على أيدى من يفترض انهم حراسه والامناء عليه .

ولابد ان يكون لهذا الموضوع الهام حديث آخر حين نواصل عرضنا لاسباب هذا الانقلاب المفاجئ في اوضاع المعسكر الاشتراكي .

الفصل الثالث

الخـــلل فـــى الـداخـل

لاجدال في أن سباق التسلح قد وضع الكتلة الشرقية في مازق يجعلها عاجزة عن تحقيق الكثير من امكانات تجربتها الاشتراكية. ذلك لان مؤسسي هذه التجربة، مثل ماركس وانجلز ولينين، لم يعملوا حسابا للتنافس في ظل حرب باردة وتسلح ثقيل تمتص تكاليفه عرق الناس وجهدهم عاما بعد عام ، بل تخيلوا جوا من التنافس السلمي، وتفاءلوا بحتمية انتصار الاشتراكية على الرأسمالية في مثل هذا الجو. ولقد تمثلت براعة النظام الرأسمالي في خلق أوضاع لم تخطر ببال هؤلاء المؤسسين، يدور فى ظلها التنافس داخل اطار مختلف تماما عن ذلك الذي تصورته النظرية الاشتراكية، فنجح بذلك في ابطاء نمو المجتمعات الاشتراكية وإبعادها عن السباق معه وفرض التخلف عليها في جوانب كثيرة من حياتها.

ويستطيع القارئ العربى أن يستوعب هذه النقطة بسهولة تذكر ماقام به الاستعمار العالمى تجاه مجتمعاتنا العربية من أجل إيقاف نموها .

فبعد أن أيقن أن عصر الاحتلال المباشر لاراضى الغير قد ولى، وأن المنطقة العربية موقعا استراتيجيا عظيم الاهمية بين الشرق والغرب الجغرافيين، وبين الشرق والغرب الايديولوجيين . وعرف أن هذه المنطقة تضم أضخم مخزون لاهم مصدر عالمي للطاقة، وأن موارد النفط يمكن أن تكفل لها نموا اقتصاديا واجتماعيا هائلا ، توصل الى أن زرع اسرائيل في قلب الوطن العربى هو خير وسيلة لايقاف هذا النمو، فضلا عن أن هذا الكيان الغريب هو فى الوقت ذاته ركيزة وقاعدة كبرى للاستعمار في المنطقة . ومن المؤكد أن النهضة والتنمية العربية كانتا ستتخذان طريقا أكثر ايجابية بكثير مما هو عليه الان، لو لم تكن اسرائيل قد غرزت فى قلب هذه المنطقة.

لقد كان الاسلوب واحدا في الحالتين، وعن طريقه نجح الغرب الرأسمالى في خلق ظروف مصطنعة تحول دون تمكين القوي المناوئة له من تحقيق امكاناتها الكامنة. ومع ذلك فان هذا لايعنى على الاطلاق أن اخفاق التنمية ، فى الحالتين أيضا، لم يكن له من سبب سوى تلك المؤامرة الاستراتيجية الكبرى، فقد كانت الاخطاء الداخلية فادحة . ولما كان الحديث عن التجربة العربية خارجا عن إطار بحثنا الحالي، فسنحاول الان استخلاص أهم العوامل الداخلية التى أدت الى هذا الوضع الذي يبدو في نظر العالم كما لو كان انهيارا تاما للتجربة الاشتراكية ككل.

لقد كان العامل الاقتصادى حاسما في الثورة التي زلزلت أنظمة الدول الاشتراكية خلال شهور قلائل، ولكن هذا العامل لن يعالج مستقلا في هذا البحث الذي نقوم به ، وذلك لسببين : أولهما أن كاتب هذه السطور لايعرف عنه، بحكم تكوينه الثقافى، إلا القشور. فالبحث في تأثير ابتعاد الاقتصاد الاشتراكي عن نظام السوق، وعيوب نظام تحديد الاسعار، والمشكلات المترتبة على التخطيط المركزي، الى آخر هذه الموضوعات الاقتصادية ذات الاهمية العظمى، يفوق قدراتى الى حد

لايسمح لي باصدار أي حكم مفيد بشأنه. غير أن هناك سببا آخر هاما لعدم لجوئي الى معالجة العامل الاقتصادي على نحو مستقل. هذا السبب هو أن الانسان الذي خرج يتظاهر في الشوارع مع مئات الالوف من أقرانه في الساحات الكبرى بمدينة بودابست أو براغ، والذى عرض صدره للرصاص في تيمشوارا، لم يكن يثور من أجل عامل منعزل عن بقية العوامل فالكيان الانسانى وحدة لا تتجزأ، وحين يخاطر المرء بحياته من أجل احداث تغيير جذري في مجتمعه، فانه يفعل ذلك بكيانه كله، ولايستجيب فقط لنداء معدته حين لاتجد ما يشبعها، أو جلده حين لايجد ما يدفئه ، وانما يستجيب أيضا لنداء عقله الذي يرفض كبت رأيه ، وروحه التي تأبى الظلم الواقع عليه. وفى الوعي السياسي والاجتماعي للمواطن العادي،لاينفصل الاقتصاد عن علاقة هذا المواطن بحكامه ورؤسائه وأقرانه ، وعن رأيه في الطريقة التى يدار بها مجتمعه ككل. وهكذا فان الاقتصاد، الذي يمكن أن يعالج مستقلا لاغراض التحليل العلمي، يكون جزءا من كل أشمل منه في الحياة الفعلية للانسان، وفي مختلف ممارساته الاجتماعية . ولما كان هذا الامر الاخير هو الذي يعنينا ، فان هذا يعطينا مبررا آخر لمعالجة موضوع الاقتصاد في سياقه الاوسع والاعم.

ولأضرب مثلا لفكرتي هذه، بالحديث عن انتاجية الانسان العامل في بلدان المعسكر الاشتراكي. هذا بالطبع موضوع يستطيع المتخصصون أن يزودونا فيه بأرقام واحصاءات وجداول دقيقة ،ولكن اغلب الظن ان هذه المعلومات الكمية المفيدة ستؤدى ، آخر الامر، الى تأكيد ذلك الانطباع الذي يخرج به كل من زار بلدا من هذه البلدان، وهو ان العامل- بأوسع معانى هذه الكلمة اي بمعنى كل من يمارس عملا من اى نوع- اقل انتاجية بشكل واضح من نظيره في بلاد اوروبا الغربية، ناهيك عن اميركا واليابان. فحصيلة عمله محدودة، وطريقة انجازه لهذا العمل تتسم بقدر كبير من البطء والتكاسل. وعلى الرغم من أن هذا

حكم انطباعي تولد في نفس كاتب هذه السطور نتيجة زياراته لمعظم بلدان المعسكر الاشتراكي، واتفق فيه مع كثيرين غيره ممن كانت لهم مع هذه البلاد تجربة اطول، فان أمثال هذه الانطباعات، حين تكون حصيلة ملاحظة دقيقة، لايجوز تجاهلها، وخاصة اذا كان الفارق واضحا بينها وبين الانطباعات التى تتكون لدى من يزور بلدا من بلدان المعسكر الغربي.

المهم في الامر أن الانتاجية الضئيلة للعامل تشكل خطورة كبرى على حياة اي مجتمع: ذلك لان ثروة هذا المجتمع هي، الي حد بعيد، حصيلة انتاج العاملين فيه. فاذا كان كل عامل في موقعه لايتحرك الا ببطء، ولاينجز الا الحد الادنى، فان المجتمع ككل لابد أن يعانى ازمات اقتصادية خانقة.

ولكننا حين نبحث في الاسباب التي تجعل قدرات العامل الانتاجية محدودة، نجد انفسنا مضطرين الى الجمع بين الميدان الاقتصادي والميدان السياسي والاجتماعي، وربما الاخلاقى، في وحدة واحدة، ففى استطاعة المرء، حين يتعمق التفكير فى ظاهرة التكاسل والتباطؤ هذه أن يدرك وجود نوع من المقاومة الصامتة لدى شعوب اوروبا الشرقية على الانظمة الجائرة التي كانت تحكمها. لقد كانت تلك الانظمة قمعية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وكان اوضح مظاهر القمع ان تنص معظم دساتيرها على ان حزبا بعينه، هو الحزب الشيوعي، ايا كانت تسميته فى كل دولة على حدة، هو الحزب الحاكم، مما يترتب عليه أن يصبح اى خروج عن تعاليم ذلك الحزب أو أية محاولة لاحلال حزب آخر محله، خروجا عن الدستور يستحق أشد العقاب. فما معنى أن يعطي اي حزب لنفسه هذا «الحق الالهى» في أن يكون هو الحاكم الى الابد؟ واذا كانت مبادئه الاساسية تقول أنه هو المدافع الحقيقى عن العمال والفلاحين لانه هو الذي يمثل طبقتهم تمثيلا أميناً. واذا كان العمال والفلاحون هم الاغلبية الساحقة في أى شعب ، فلماذا لايجعل سلطته مرتكزه على

اختيار يمارسه هذا الشعب بحرية تامة؟

وبطبيعة الحال فان هذا القمع الرئيسي، الذي يتمثل في ذلك الاهدار «الدستوري» لاية فرصة أمام الشعب كيما يختار السلطة التي تحكمه، لابد أن تتفرع عنه ألوان أخرى من القمع لا تقل عنه قسوة وضراوة، فحرية الكلام والتعبير عن الرأى مصادرة الا في الحدود التي تساير النظام. وحرية السفر محظورة الا للوفود الرسمية وفي ظل رقابة مشددة، ولقد كان لضياع هذه الحرية الاخيرة بالذات اسوأ الاثر في نفوس جماهير أوروبا الشرقية التى ترى كل بلد اوروبى غربى يكاد يفرغ سكانه خلال العطلات الصيفية لكي يوزعهم سياحيا على بقية البلدان. أما المركزية الشديدة للسلطة فتقضى تماما على قدرة الفرد على التصرف، ولو في أضيق الحدود، فابسط مطلب يحتاج الي قرار يمكن ان يمر علي عشرات من الموظفين، حسب تدرجهم الهرمى، ولا يجاب الا بعد وقت طويل وتعقيدات ادارية مملة . ولم تكن الاضرار التي يسببها سرطان البيروقراطية مقتصرة على جهاز الدولة، بل انها كانت تولد خميرة سخط تتجدد دائما بين الجماهير.

ومن جانب اخر فان الحزب الذي جاء من اجل القضاء على الفوارق بين الطبقات، قد صنع هو نفسه تفاوتا طبقيا صارخا بين أعضائه وبين بقية الشعب، اذ كان أعضاء «الحزب» يتمتعون بامتيازات مادية ومعنوية ملموسة، بل كان لهم فى بعض هذه البلاد امتيازات خاصة حتى في ميدان التعليم. ومن اجل حماية هذه الاوضاع الجائرة كان لابد من وضع نظام صارم يضمن اسكات الاصوات المعارضة ، والتجسس على المواطنين عن طريق زرع عملاء السلطة في مواقع العمل العادية أو تجنيدهم من داخلها، وإقامة أجهزة صارمة للامن تسهر على إقلاق راحة المواطنين وتضمن انضباطهم وتعاقبهم بقسوة لو خرجوا عن الخط المرسوم.

وليس ثمة شئ يثير نقمة الشعوب بقدر التناقض بين الشعارات

المعلنة والممارسات الفعلية لحكامها، فحين ترى الشعوب كبار «الثوار» فيها يعيشون حياة الاقطاعيين المترفين، وحين ترى أساطين الاشتراكية» ينعمون باجمل الملذات «البورجوازية»، عندئذ يتجاوز ذلك التناقض طاقتهم على التحمل» ولو كان النظام يعلن على الملأ أنه رأسمالي أو اقطاعي ويعترف مقدما بالتفاوت الحاد بين الطبقات ويفلسفة» على طريقته الخاصة ، لتحملته الجماهير بمزيد من رحابة الصدر، فحين يعلن الاميركيون ، مثلا انهم دولة رأسمالية تقوم على» مجتمع الفرصة «وان اساس نظامهم يقتضى أن يكون البعض من أصحاب الملايين والبعض الاخر من العاطلين المعدمين ، ويسود لديهم شعار» كل واحد وشطارته»، وعندئذ لا يكون سخط الناس عميقا حين يشاهدون مظاهر البذخ التى يعيش بها آل روكفلر أو آل ديبونت، بل ربما كانت هذه المظاهر ذاتها من عوامل تقوية النظام وتدعيمه، لانها ترسخ في نفس كل انسان «الحلم الاميركي» وتوهمه بأن «نادي المليونيرات» ليس مغلقا، بل أن أبوابه المفتوحة ترحب بكل من يملك الموهبة المطلوبة، أو يتحين الفرصة الملائمة.

أما حين يعلن الحكام أنهم انما جاءوا من قاع الجماهير الشعبية، وأنهم يمثلون مطالب الاغلبية المسحوقة ويجسدون امنياتهم، ثم يراهم الناس يعيشون حياة مرفهة منعمة يتمتعون فيها بكل الملذات التي حرمت منها الجماهير، فعندئذ تتراكم عوامل الثورة ويغلي الاناء المكتوم.

وبطبيعة الحال فانني لا أقصد بهذه المقارنة القول انه لا توجد أسباب للسخط بين الزنوج والملونين وغيرهم ممن يعيشون على حافة الفقر في «جنة الرأسمالية» (وهم اكثر مما يتصور معظم النا)، بل أن كل ما أعنيه هو أنه حين يكون ذلك التفاوت بين الطبقات جزءا لا يتجزأ من الفلسفة المعلنة و المعترف بها للمجتمع، تكون دواعى السخط عليه أقل مما هي في المجتمعات التي يقوم نظامها على الغاء الفوارق

الطبقية، ويكون اصحاب السلطة فيها هم أنفسهم أوضح تجسيد لهذه الفوارق.

ولعل الكثيرين من الجيل الاوسط والاكبر في مصر وكثير من الاقطار العربية يذكرون اسم «الشيخ عاشور»، الذى كان إماما غير متميز في احد مساجد الاسكندرية، وانتابته في احدى خطبه، خلال الستينات، نوبة غضب فتحدث عن الاتحاد «الاشتراكي» الذي يركب قادته المرسيدس وترتدى نساؤهم أغلى أنواع الفراء.. الخ.. فوقع عليه اضطهاد من السلطة (اختلفت الاراء في نوعه ومداه). ولكن ما يهمنا من القصة هو أن هذا الرجل، بامكاناته المحدودة، حين رشح نفسه بعد سنوات لعضوية المجلس النيابي فاز فوزا ساحقا، بلا مجهود، واكتسح مرشحين انفقوا في حملتهم الانتخابية الوفا مؤلفة . وحين عاد الي ممارسة هوايته في النقد الصريح والساذج داخل المجلس، طردته منه الحكومة «بالقانون» (!). فحاول ترشيح نفسه مرة أخرى، وكان واضحا انه سيكتسح الدائرة للمرة الثانية، فاضطرت الحكومة الى «تفصيل» قانون يحول دون اعادة ترشيحه، والنتيجة التى أريد أن أخلص اليها من هذه القصة هي ان الجماهير تتعاطف بقوة وعفوية مع كل من يفضح التناقض بين الشعارات المعلنة لانظمة الحكم وبين ممارستها الفعلية.

ولكي تبرر تلك الانظمة الاشتراكية الممسوخة تصرفاتها، لجأت الي نشر الدعوة الي الزهد بين الجماهير، على نحو يذكرنا كثيرا برجال الكنيسة في العصور الوسطي، الذين كانت مواعظهم كلها تدور حول العزوف عن متع الدنيا والعمل من اجل الاخرة، بينما كانوا هم أنفسهم يعيشون حياة يستمتعون فيها بكل ما تقدمه «الدنيا الفانية» من ملذات . وتجسدت هذه الدعوة على شكل عقيدة معادية للاستهلاك ، فنجحت في اقناع عقول كثيرة بأن الاستهلاك يتعارض مع شعور المواطن بالمسؤولية، وتبنى هذه الدعوة عدد كبير من مثقفي العالم الثالث، حتى

اتخذت لدي البعض طابعا مضحكا مبكيا، حين اخذوا يلومون شعبا كالشعب المصري، مثلا ، علي إفراطه في استهلاك الخبز!

وبطبيعة الحال فان أبعد الامور عن ذهني أن أدافع عن نمط الحياة الباذخة، الذى يجعل من الاستهلاك الترفى لسلع مادية معقدة وغير ضرورية على الاطلاق، هدفا أساسيا لحياة الانسان، ولاسيما حين يكون معظم افراد مجتمعه محرومين من الضرورات الاساسية في الحياة فمثل هذه الحياة المفرطة في الترف ظالمة، لانها تتم دائما على حساب شقاء الاخرين، فضلا عن انها تافهة، لانها تستعيض عن الجوهر الداخلى العميق بالمظهر الخارجى السطحي . ومع ذلك فليس من العدل ان يتطرف مذهب من المذاهب في التنديد بالاستهلاك الى حد يولد شعورا بالذنب لدى كل من يمارسه في حدود ضيقة. ذلك لان الاستهلاك هو، فى نهاية المطاف، أحد المؤشرات الهامة للنصيب الذي يناله الانسان من الدنيا. ومن الظلم البين أن نخدع الناس فنوهمهم بأنهم يخونون مجتمعهم حين يتطلعون الى نيل نصيبهم هذا، لمجرد ان السياسة الخرقاء التى يتبعها نظام ما جعلته عاجزا عن أن يضمن لشعبه مستوى آدميا للمعيشة.

المهم في الامر أن القهر المعنوي والفقر المادي كانا يسيران، في تلك التجربة، جنبا الى جنب، ولذا فان من غير المجدي ان نحاول فصل أحدهما عن الاخر، ومن هنا كانت الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها الانسان، في تلك المجتمعات، أن يقاوم النظام، ويعبر عن احتجاجه على ممارسته، هى ان يتلكأ فى عمله ويقلل انتاجيته ، وكان ذلك كما قلت أحد الاسباب الرئيسية لضعف الاقتصاد فى الدول الاشتراكية. بل ان تبادل التاثير بين القهر المعنوى والفقر المادي يؤدى اليه حلقة جهنمية تظل تدور بلا نهاية. فمقاومة القهر السياسى والاجتماعي، عن وعى او بغير وعى، باللجوء الى التراخى في العمل ، تؤدي الى مزيد من النقص في موارد المجتمع ككل، مما يزيد من شحن طاقة السخط لدي

الجماهير، فيترتب على ذلك اشتداد القمع والقهر، وتظل القصة تتكرر الى مالا نهاية.

على ان من الخطأ الفادح أن يترك الكاتب في هذا الموضوع لدى قرائه انطباعا بأن الصورة كانت قاتمة كلها. فقد حققت التجربة الاشتراكية، حتى في أحلك نماذجها، انجازات، المجانية الكاملة في التعليم والعلاج الطبى، مع رفع مستواها باستمرار، وحل مشكلات معقدة كالمواصلات والاسكان بأساليب تخفف الاعباء عن عاتق الطبقات الشعبية، حتى لو كانت بعيدة عن معايير الترف كما تفهمها الشعوب المحظوظة، ورعاية الدولة للثقافة مع اتاحتها لقاعدة جماهيرية واسعة . ولعل اعظم الانجازات جميعا هو ذلك الامان الذي يحيط بالانسان في عمله وحياته: فالمجتمع لايعرف البطالة، والشيخوخة مؤمنة (بتشديد الميم)، ووفاة العائل لاتعنى تشريد أسرته، والاسعار المحددة مقدما، والموحدة في كل مكان، تعطى المشتري أمانا لا يحس به الا من عانى خداع البائعين ومناوراتهم. فاذا اضفنا الى ذلك ان الاشتراكية في المعسكر الشرقي قد طبقت في بلاد كانت كلها - باستثناء تشكوسلوفاكيا- تمثل «الريف» الاوروبى، أمكننا ان ندرك ان هذه الانجازات لم تكن بالامر الهين على الاطلاق.

على أنني أود، قبل ان أترك هذا الموضوع، أن أعلق قليلا على ميزة الامان الاجتماعى هذه. إذ يبدو أن الامان المفرط يؤدى الى عكس الهدف المقصود منه، ويبدو أن العامل في المجتمع الذي لايمنحه مثل هذا الامان التام يمارس عمله بحماس اكبر ، وبانتاجية أعظم، مع أن الذهن يميل نظريا الى تخيل عكس ذلك، ويخيل الى أننا هنا إزاء مشكلة فلسفية في المحل الاول: فهل من الصحيح أن الانسان يحتاج الى قدر معين من الشعور بالخطر كيما يقدم أفضل مالديه؟ هذا سؤال يكفينا أن نطرحه الان على القارئ، لان الخوض في تفاصيله سيبعدنا كثيرا عن موضوعنا الاصلي.

لقد كانت الايجابيات كثيرة بغير شك، ومع ذلك فان المرء لايملك إلا أن يأسف بمرارة لان التجربة كان في وسعها أن تحرز نجاحا يفوق ما حققته بمراحل، لو لم يكن الفساد الداخلي والخلل التنظيمي والاستبداد القيادي قد وصل فيها الى هذا الحد المؤلم. ويبدو لي أن السبب الرئيسي لهذا الخلل هو أن بلدان المعسكر الشرقي في اوروبا لم تنتقل الى الاشتراكية من خلال تجربة اصيلة، وانما فرضت عليها الاشتراكية بشكل أو آخر، نتيجة لغزو الجيوش السوفياتية لهذه البلاد خلال المراحل الاخيرة من قتالها ضد جيوش هتلر المنسحبة في الحرب العالمية الثانية. وكان نصيب الاتحاد السوفياتي من الغنيمة، بعد حرب كان له فيها الدور الاعظم بلا جدال، هو أن يقيم حوله حزاما من الدول ذات الانظمة المؤيدة له والمندمجة فيه. وهكذا لم تتكون «الكتلة الشرقية» نتيجة كفاح مماثل لذلك الذي خاضه لينين والبلشفيون في روسيا قبل عام ١٩١٧ وانما جاءت الاحزاب الشيوعية فيها الى الحكم «بالتعيين» ان جاز هذا التعبير. ومن هنا كانت الفجوة عميقة بينها وبين قطاعات جماهيرية تزداد اتساعاً كلما أمعن النظام في ممارسة أساليب القمع . وكان وجود القوات، أو «الحاميات» السوفياتية في هذه البلاد هو السند الاساسي لهذه الانظمة ، وهو الذي يقيها سخط الجماهير في أوقات الشدة.

ومن المؤكد أن هذه الجماهير كانت تختزن في داخلها قدرا هائلا من الثورة المكبوتة، بدليل أنها تحركت بمجرد أن تأكدت من أن سياسة جورباتشوف لا تؤيد التدخل العسكري من اجل دعم أي نظام للحكم لا يرضى عنه شعبه. وحين تبين بالدليل العملية، بعد الانسحاب السوفياتي من أفغانستان في أوائل العام الماضي، أن هذه السياسة حقيقة لا رجعة فيها، كانت تلك اشارة الانطلاق نحو الثورة المكبوتة.

ان جميع الدلائل تدل على أن جورباتشوف كان منذ البدء واعياً بأن الوضع الذي كان سائداً في الكتلة الشرقية يستحيل أن يستمر

الى الابد، وبان تغييره بات محتماً ، وكلما كان التغيير أسرع كان ذلك افضل. وجميع تصرفاته تؤكد أنه يدرك استحالة بقاء نظام يعلن أنه قام لمصلحة الانسان، وفى الوقت ذاته يقهر الانسان ويقمعه.

ومن الواضح ان سياسته تقوم على مبدأ أساسي هو، في ظروف العالم الراهنة، مقامرة كبرى ، وأعنى به أن على هذه الانظمة أن تثبت جدارتها بالبقاء بقواها الخاصة، وليس بمساندة الجيوش وقوات الامن السرية، والا فلا مفر من أن تخوض مجتمعاتها تجربة جديدة وتبدأ من الصفر. وبطبيعة الحال فقد رأينا حولنا في الاشهر الاخيرة نماذج كثيرة لمثقفين من المتعاطفين مع الاشتراكية ، يلومون الزعيم السوفياتي لانه فتح على نفسه بابا لن يستطيع إغلاقه، ولان النتيجة العملية لسياسته توشك على أن تؤدي الى تصفية المعسكر الاشتراكي برمته، ولكن من يوجهون هذا النقد يغفلون مسائل أساسية: فهل كان المطلوب ترك الاوضاع الفاسدة على ما هي عليه، من أجل الحفاظ على وحدة المعسكر؟- وهل يكون من حق أحد، بعد ان اتضح له مقدار السخط المتراكم لدى الشعوب نفسها، أن يعترض على ما حدث؟ هل كانت تلك إشتراكية بحق، إذا كانت الجماهير قد رفضتها الى هذا الحد؟ الحق أن اصحاب هذا الاعتراض يسيئون الى الاشتراكية، التى يزعمون الدفاع عنها، اساءة بالغة حين يستنكرون عملية إطلاق المشاعر الحبيسة لدى الجماهير، لانهم يفترضون ضمناً أن بقاء الاشتراكية رهن باستمرار القمع واستخدام القوة لاخماد كل صوت معارض.

وأخيراً فانني اذا كنت قد ركزت في هذا الفصل على العوامل الداخلية التى أساءت أبلغ الاساءة الى صورة الاشتراكية في مجتمعات الكتلة الشرقية، وأكدت أن هذه العوامل تفسر الى حد بعيد عنف رد الفعل الذي لمسه العالم كله بين شعوب هذه الكتلة ضد أنظمتها الحاكمة، فان هناك عاملا أخيراً ينبغي الا يغيب عن بالنا، ما دمنا بصدد استقصاء الاسباب المؤدية إلى هذا التحول الحاد. فمن المؤكد أن هناك

أصابع متآمرة تستغل الاخطاء الفادحة لكي تزيد النار اشتعالا، وتوجه حركة الجماهير العفوية الى طريق تقطع فيه جميع روابطها الماضية ، إلى الابد. وكل من يتابع الاخبار بإمعان، يستطيع أن يدرك بسهولة الدور الذي تلعبه وكالات الانباء الغربية في تشوية كثير من الاحداث: فإذا غير أحد الاحزاب الشيوعية اسمه نقل الخبر بصيغة توحي بأن هذا الحزب قد حل نفسه، وإذا حُذفت مادة في الدستور تنص على احتكار هذا الحزب للسلطة، أوحت الينا وكالات الانباء بأنه قد استبعد نهائيا من الحكم. هذا فضلا عن الانتقائية الواضحة في اختيار الاشخاص الذين يقدم إليهم الميكروفون، لابداء رأيهم في الاحداث، والفجاجة المقززة في تصوير الجماهير وهي تقبل على شراء اللحم بنهم . وتلذذ المذيع بالسخرية من الشاب الذي يمسك ثمرة «الكيوى» دون أن يعرف اسمها.. الخ. هذا كله اصطياد في الماء العكر، على المستوى الاعلامي، لان الفرصة السانحة الان لا تعوض، والحديد يجب أن يطرق وهو ساخن. اما على مستوى الاحداث نفسها فلا مفر في أن يشك المرء في وجود أصابع أجنبية في تلك التحركات التي تحرض الجماهير على استعجال قطف الثمار، مع أن الاصلاح لم يكد يبدأ الا بالامس القريب ولا أظن أن الحركات الانفصالية والعرقية في الجمهوريات السوفياتية . وهي في الآونة الراهنة أخطر ما يواجه جورباتشوف ، تخلو من هذا العنصر التآمري.

وعلى أية حال فان اشارتي الى هذا العامل لا تنفى على الاطلاق أن التجربة، بالصورة التي اتخذتها طوال العقود الاخيرة، كانت تحمل في طياتها بذور إخفاق صارخ، وأن ذلك المزيج من الغباء والتسلط والقمع والعناد، الذى كانت تدار به الامور في بلاد الكتلة الشرقية حتى الامس القريب، كان هو المسؤول الاول عن ردود الفعل العنيفة التي قامت بها جماهير خابت آمالها في انظمة كانت تقسم ليل نهار باغلظ الايمان أنها لا تعمل الا لصالحها.

الفصل الرابع

هل تصمد النظرية الاشتراكية؟

عندما يجري المرء أية مقارنة بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، فى ظروف العالم الراهنة، فسوف ينتهي حتما الى تأكيد تفوق الاول على الثانى فى نواح هامة وحيوية، على رأسها الاقتصادية، غير أن اجراء مثل هذه المقارنة ينطوى على قدر من الظلم: إذ أن التجربة الاشتراكية أولا، أحدث عهدا بكثير من التجربة الرأسمالية. فالاولى امتدت أربعة قرون على الاقل، منذ مطلع العصر الحديث، بينما الثانية لم تبدأ الا منذ سبعين سنة في دولة واحدة ، ومنذ أقل من خمس واربعين سنة في بقية الدول الاشتراكية في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية،. ومن المتوقع في فترة قصيرة كهذه أن يكون النظام في مرحلة لايزال يسودها طابع التجريب، وأن يقع خلال تجاربه فى أخطاء فادحة.

ومن ناحية أخرى فان هذه الفترة القصيرة لم تكن على الاطلاق، بالنسبة إلى اصحاب هذه التجربة ، فترة هدوء يستكشفون فيها أبعاد

تجربتهم ويعملون على تطويرها بصورة ايجابية، وانما كانت فترة صراع ضد المقاومة الداخلية في البلاد الاشتراكية من جهة، وضد المقاومة الخارجية الضارية التى حاول بها النظام الرأسمالى وأد التجربة الجديدة منذ لحظة ولادتها من جهة أخرى. وفيما يتعلق بهذه النقطة الاخيرة، فلابد أن نذكر أن العالم، عند مطلع العصر الحديث، كان خالصا للرأسمالية، وكان في حالة «فراغ أيديولوجي»، إن جاز أن نستخدم في وصفه تعبيرا معاصرا. فلم تكن هناك مقاومة تذكر لان الاقطاع والكنيسة كانا في زمن الافول، بل يمكن القول، على العكس من ذلك، إن موارد العالم كله قد سخرت من أجل إنجاح التجربة الرأسمالية ، وذلك عن طريق الاستعمار وغزو الاسواق واستجلاب الايدى العاملة المجانية بالرق، الخ. وهكذا استطاعت الرأسمالية أن تطور نفسها بالتدريج، وتحقق جميع إمكاناتها، فى جو عالمى موات وملائم الى أبعد حد. أما الاشتراكية فقد ظهرت الى الوجود فى وقت كان فيه النظام الذي تسعى هي الي الحلول محله قد بلغ أوج قوته، ومن ثم فانه قد مارس ضدها منذ بدء ظهورها وحتى اللحظة التى أكتب فيها هذه السطور، مقاومة ضارية، ولم يدع لها فرصة للتنفس لحظة واحدة فى هدوء، ولا ننسي فى هذا الصدد التأثير المدمر للحرب العالمية الثانية ، التى خرجت منها الدولة الام في النظام الرأسمالي سليمة متجددة الحيوية، بينما خرجت الدولة الام فى المعسكر الاشتراكى (والوحيدة حتى ذلك الحين) محطمة مثخنة بالجراح.

وهكذا فان أية مقارنة منصفة بين إنجازات النظامين ومستواهما وما حققاه لمجتمعاتها ينبغى أن تأخذ هذه الفوارق الجوهرية بعين الاعتبار. ومع ذلك فإننا نعتقد اعتقادا راسخا بأن التجربة الاشتراكية، سواء تلك التى بدأت فى نهاية الحرب العالمية الاولى أم تلك التى بدأت في أعقاب الثانية، قد ارتكبت أخطاء فادحة لم يكن لها ما يبررها حتى مع عمل حساب جميع الفوارق السابقة. وهذا الرأي لم يعد اليوم مجرد

استنتاج فكري، وانما تزيده وتؤكده أصوات الجماهير الهادرة فى مواصم الدول الاشتراكية. فلابد أن يكون هناك خلل واضح في النظام الذي يقوم بنائه الايديولوجي على العمل لصالح القاعدة الجماهيرية العريضة ، اذا كانت هذه القاعدة الجماهيرية هى ذاتها أول من يثور عليه بضراوة.

ولكن السؤال الذي يشغل العالم باكمله اليوم، ليس تحديد مدي الخطأ في التجربة الاشتراكية ، وانما هو: هل لازالت للاشتراكية فرصة للبقاء في عالم اليوم والاستمرار في عالم الغد؟ هل تركت لها تلك الكراهية التي تنضح بها وجوه المتظاهرين الساخطين أملا في أن تظل ايديولوجية رئيسية عندما يحل القرن المقبل، أم أن العقد سينفرط سواء بالحركات القومية الانفصالية داخل الاتحاد السوفياتي، أو بالتبرؤ من كل ماله صلة بالعهد السابق، في بقية الدول الاشتراكية؟ يبدو لى أن الاشتراكية ، كايديولوجية جماهيرية، تواجه في هذه الايام أول اختبار حقيقى لها، فحتى خلال الحرب العالمية الثانية، عندما اجتاحت الجيوش النازية الجزء الاكبر من الاراضى السوفياتية الاوروبية وتوغلت مسافات غير قليلة فى الجمهوريات السوفياتيه الاسيوية، لم يكن الاختبار الذى تتعرض له الاشتراكية بمثل هذه القسوة. ذلك لان تعبئة الشعور الوطنى الذى يرتبط بتراث أقدم بكثير من التجربة الاشتراكية، قد أدت دورا هائلا فى ذلك الصمود الاسطوري الذي تمكن السوفيات بفضله من إلحاق أفدح الهزائم بالغزاة النازيين. أى أن الاشتراكية لم تكن هي نفسها التى تتعرض للمحنة والاختبار. أما في هذه الايام فان المبدأ الاشتراكي ذاته هو الذى أصبح موضع التساؤل ، وقدرته على الاستمرار هي التي أصبحت موضع شك.

والمخرج الذى يلجأ اليه المثقفون عادة حين يصادفهم مأزق مماثل لهذا الذي تواجهه الاشتراكية فى هذه الايام، هو التمييز الحاد بين النظرية والتطبيق. فقد أثبتت الاحداث أن التطبيق كان سيئا الى أبعد

حد، وأن أولئك الذين وضعوا على قمة المجتمعات الاشتراكية لكى يكونوا حراسا للمبدأ وأمناء عليه، قد أساءوا اليه بممارستهم اللاانسانية أبلغ الاساءة. ولكن المثقف يظل مصرا على أن النظرية ذاتها غير مسئولة عن أخطاء التطبيق، وعلى أن ماحدث لم يكن الا انحرافا للممارسات عن المبدأ القويم، ومع ذلك فان هذه الاجابة لا تقنع الكثيرين. ذلك لان من حق المرء أن يشك في أية نظرية تعجز عن تجسيد نفسها في الواقع العملي الى هذا الحد، أو تسفر عن نتائج مخيبة للآمال كلما طبقت.

ولابد أن تكون النظرية التي تؤدى، فى كل مرة تطبق فيها عمليا، الي ظهور طغاة أو مجموعات حاكمة متحجرة تستغل نفوذها أسوأ استغلال. لابد أن تكون هذه النظرية مشوبة بعيوب أساسية، لان أحدا لايستطيع أن يفصل بين الميدان النظري والميدان العملي التطبيقى الى حد تصويرهما بأنهما ينتميان الى عالمين متباعدين لا يلتقيان.

نعم، كانت هناك عيوب أساسية في النظرية ذاتها، بالاضافة الى التجاوزات القاتلة في التطبيق. ولاجدال في أن مناقشة هذه العيوب تقتضى جهدا ووقتا كبيرين. وقد قدم الكثيرون ، على مدى سنوات طويلة آراء خصبة فى هذا الشأن، يستحيل أن يتسع المجال للحديث عنها فى مثل هذا الحيز المحدود. وربما كان الامر المجدي حقا، فى هذا السياق، هو أن نورد أهم ما كشفت عنه الاحداث الاخيرة من عيوب فى النظرية ذاتها، لان الوعى بهذه العيوب سيكون هو المدخل الى عملية التصحيح الكبرى التى ستحاول الاشتراكية القيام بها فى الاعوام القليلة القادمة ، اذا لم تطرأ عوامل تبدد فرصتها فى القيام بأى تصحيح.

أول هذه العيوب تجاهل انسانية الانسان. صحيح أن مبدأ الاشتراكية يقوم أصلا على تحرير الانسان من عبودية الاستغلال الذى يمارسه رأس المال، ومن تعامل الرأسمالية معه كما لو كان «شيئا» يباع ويشترى. غير أن الفكر الاشتراكي قد طور على مر السنين مفهوما

للانسان يؤكد الجانب الاجتماعي فيه أكثر مما يرعى الجانب الفردي. فالانسان الذي تمجده الاعمال الادبية والفنية والفكرية، التي تسودها الروح الاشتراكية، سواء أكانت اشتراكية ماركس أم غيره، هو الانسان الذي تندمج أهدافه كلية مع أهداف المجتمع، وهو الذي ينسي نفسه كفرد له عالمه الخاص ، لكى يوحد ذاته مع الكل الاكبر الذى ينتمى اليه . ومن السهل جدا، عند التطبيق، أن يتحول هذا المبدأ الذى كان هدفه فى الاصل نبيلا، الى مبرر لقهر الانسان وظلمه، فما أسهل أن يتهم أى حاكم مستبد مثل ستالين من يعارضه بأنه يتآمر ضد مصلحة المجتمع، فيصدر حكما باعدامه وهو مرتاح الضمير، لان «الكل الاكبر» هو الغاية القصوى، وفى سبيله يهون كل شئ. وما أسهل أن توضع مصالح «الخطة» الشاملة فوق مصالح فئات كثيرة قد تجد من المستحيل، أو من المرهق، تنفيذها تبعا لرؤية المخططين الذين لايرون إلا الصورة «الكلية» ويتجاهلون كل ما في داخلها من جزئيات انسانية. وماأسهل أن تتم التضحية بكثير من ضرورات الحياة في هذا البلد أو ذاك من أجل مصلحة «المعسكر الاشتراكي» ككل. وهكذا فان المبدأ الذي يوضع فى الاصل لتحقيق مصالح أوسع قطاعات من الجماهير، يتحول بالتدريج الى مبرر فكري لقهر الجماهير وتجاهل مطالبها المشروعة.

ولقد حاول الكثيرون، طوال تاريخ الحركة الاشتراكية، أن يؤكدوا أهمية هذا الجانب الانسانى، ويقنعوا الاحزاب الاشتراكية، سواء أكانت فى الحكم أم خارجه، بأن اعطاء جرعة من النزعة الانسانية الى مذهب سوف ينشطه ويزيد من عافيته. غير أن هذه المحاولات كانت تصطدم دائما بموقف المدافعين عن «الصرامة» و «القوانين الموضوعية» وكانت تتهم بأنها اشتراكية «رخوة» أو «غير علمية» لان الاشتراكية الحقيقية فى نظر هؤلاء المتشددين يجب أن تضع في اعتبارها العوامل العامة التى تتحكم في مسار التاريخ، وهذا وحده هو ما يجعلها «اشتراكية علمية» بالمعنى الصحيح، أما تلك الرهافة الانسانية فانها تحول

السياسة الى شئ أشبه بالشعر او الفن. ولعل فى هذا ما يفسر، الى حد بعيد، تلك الازمات المتلاحقة التى كانت تثور بين سلطة الحزب وبين الفنانين والادباء ، منذ بداية الثورة الشيوعية فى ١٩١٧ حتى اليوم ، ولعل فيه أيضا ما يفسر تلك الظاهرة الفريدة فى تاريخ الانسانية، وهى قيام الجماهير الثائرة على الاستبداد الصارم للحزب فى تشيكوسلوفاكيا، خلال الاحداث الاخيرة ، باختيار «كاتب مسرحى» رئيسا للجمهورية (وهى فيما أتصور المرة الاولى التى يحكم فيها أحد رجال المسرح بلدا باكمله، مما يطرح تساؤلات طريفة، ينتظر المرء الاجابة عنها بشوق وتلهف، حول الطريقة التى سيتحول بها تفكير «هافيل» من استخدام خياله فى تحريك شخوص المسرح وأحداثه بحرية كاملة ، الى استخدام عقله فى تحريك أوضاع الاقتصاد والدبلوماسية والدفاع في عالم الواقع الذي لايلين!!)- هذا فضلا عن الدور الكبير الذي أسهم به الادباء والفنانون والكتاب فى أحداث البلاد الشرقية الاخرى ، والاتحاد السوفياتى نفسه، ووصول عدد منهم الى مراكز قيادته في المجر ورومانيا وغيرهما بعد الثورات الجماهيرية الاخيرة.

ان لتجاء الشعوب الى الكتاب والفنانين فى مثل هذه الظروف يمثل رد فعل واضحا على تجاهل الانسان النابض بالحياة فى الانظمة السابقة سعيا لاشبهة فيه من اجل اضفاء اللمسة الانسانية التى حرمت منها تلك الشعوب طويلا، باسم «الموضوعية العلمية»، على اسلوب ادارة المجتمع فى تلك البلاد. واذا كانت تلك التحولات تبدو في ظاهرها ثورة على التطبيق السيئ لمبدأ نبيل ، فانها في حقيقتها احتجاج على عناصر اساسية في المبدأ نفسه ، تفتح المجال واسعا أمام كل من يريد سامة التطبيق.

لقد كانت «الاشتراكية الانسانية» توصف دائما بأنها «حريفية»، بل لقد بذلت محاولات لالقاء ظل من النسيان على كتابات هامة لكارل ماركس، الفها فى وقت مبكر، لمجرد انها تؤكد هذا الجانب الانسانى

فى الاشتراكية ، مع ان هؤلاء الذين تجاهلوها لم يكونوا يتركون سطرا واحدا لماركس دون أن يحللوه ويستشهدوا به. ووصل الامر ببعضهم الى حد النظر الى هذه الكتابات كما لو كانت تمثل المرحلة «الجاهلية» في فكر ماركس، قبل ان تهبط عليه «رسالة» الاشتراكية العلمية. وكم من اشتراكيين مخلصين طردتهم الاحزاب الشيوعية لمجرد انهم سعوا الى تطعيم النظرية بهذا الجانب الانسانى. فقد كانت تدور داخل تلك الاحزاب عملية «تكفير» مماثلة لما نجده لدى اشد الجماعات الاسلامية المعاصرة تطرفا، وكان الدفاع عن شكل من أشكال الحريات الليبرالية كافيا لطرد صاحبه من الحزب، وهو ما يعنى الخروج من الجنة، والحكم عليه بان يظل مشردا منبوذا.

وقد ينتهز المعسكر الاخر الفرصة كيما يجتذب هذا المطرود او يستغل انتقاداته في دعايته ضد خصومه، فيتمزق صاحبنا من الداخل ويظل عاجزا عن الانتماء، وتغمره الحسرة الابدية وهو يرى التيار العام للمعسكر الذي يؤمن به يسير في طريق غير طريقه.

وانى لعلي يقين من أن جورباتشوف لو كان قد ظهر بافكاره هذه في العهد الستاليني، او كان قد جهر بها صراحة في «عصر الجمود» أيام بريجنيف، لاتهم بانه اكبر تحريفى، ولكان الان مجرد ذكرى باهتة لسياسى معارض مدفون فى سيبريا، أو محكوم عليه بشغل وظيفة كاتب صغير في مزرعة جماعية نائية. ولكن من حسن حظ جورباتشوف- وحظ العالم- إن افكاره لم تظهر بكل ابعادها الانسانية والديمقراطية الا بعد أن اصبح مستقرا في الحكم ، قادرا على دعم هذه الافكار بكل الثقل الذي يضفيه الوجود في السلطة. ولعل فى هذا تطبيقا آخر لتلك القاعدة التى يزخر عالمنا العربى بامثلة صارخة لها، واعنى بها ان الفرق بين الحاكم الوطنى حبيب الشعب وولى نعمته ، وبين العميل الخائن عدو الشعب والمحرض على الفتنة ، كثيرا ما يكون هو الفرق بين النجاح في الاستيلاء على السلطة والاخفاق فيها!

واذا كنا قد توسعنا في الحديث عن هذا العيب الاول في النظرية الاشتراكية ، فذلك لانه هو الاصل الحقيقي لمعظم الاخطاء الاخرى التي وقعت فيها تلك النظرية. فمن السهل ، مثلا ، أن ينتقد المرء منهج التفكير لدى معظم الماركسيين الكبار بانه منهج «سلطوي» أكثر مما ينبغي. واعني بالسلطوية ان كتابات ماركس وانجلز، ومن بعدهما لينين، ينظر اليها كما لو كانت هي المرجع الاول والاخير في كل مشكلة تواجه الفرد او المجتمع. ولابد لكي يثبت الكاتب انه مخلص للايديولوجية، من ان تمتلئ كتابته بالهوامش التي تشير الى اقتباسات من ماركس او لينين. وكثيرا ما يشعر المرء بأن الاقتباس مصطنع، لايقصد به الا اثبات «ولاء» الكاتب، لان الموضوع يتناول مشكلة مستجدة يستحيل ان يعمل مفكر في القرن التاسع عشر او أوائل القرن العشرين، مهما علت مكانته، حسابا كاملا لها. (ولست في حاجة الى تنبيه القارئ، في هذه الحالة ايضا ، الى التشابه الواضح مع المنهج الفكري لكثير من منظري الحركة الاسلامية المعاصرة).

وليس هذا النقد مجرد خطأ منهجي له تاثيره على الميدان الثقافي فحسب، بل ان تاثيره يمتد الى مجالات واسعة، اذ ان اتباع هذا الاسلوب يشجع النفاق الفكري ويجعل المتملقين هم الاقدر على التسلق الى قمة المجتمع، وهو يحول دون ظهور التجديد والابداع في ابتكار اساليب تتم بها مواجهة المشكلات في عالم سريع التقلب، ومن ثم فانه مسؤول الى حد بعيد عن كل ما تتصف به الفترات السابقة على جورباتشوف من جمود.

وأخيرا، فان من أوضح العيوب النظرية في الفكر الاشتراكي السائد حتى عهد قريب، إفراطه في التنظير. فقد كان إخضاع الواقع المتغير لقوالب المستمدة من النظرية الماركسية سمة أساسية لهذا الفكر . وكان المبرر الذي يقدم لذلك هو أن من المستحيل على أية حركة سياسية أن تنجح في ممارستها ما لم تسترشد «ببوصلة» فكرية تعلو بها على

مستوى الارتجالية والتخبط. والمبدأ في ذاته سليم، غير أن الافراط في استخدامه كثيرا ما يؤدى الى نتائج عكسية. ففى حالات كثيرة لم تكن الاحزاب الماركسية تخطو خطوة واحدة الا بعد أن تقوم بتحليلات نظرية شاملة للموقف في ضوء النظرية الام. وأعجب ما فى الامر ان هذه التحليلات كثيرا ما كانت تتناقض فيما بينها، فيصل حزب الى نتيجة معينة، ويصل حزب آخر، أو الحزب الاول نفسه في مرحلة لاحقة، الى نتيجة مضادة، إزاء الظاهرة الواحدة ، مستخدمين نفس المنهج. وكثيرا ما كان يتكرر هنا نفس الخطأ الذي لاحظه فلاسفة العصر الحديث على علماء اللاهوت في العصور الوسطى حين كانوا يجعلون من القوالب اللفظية حاجزا كثيفا يحجب عنهم عالم الواقع بكل ما فيه من ثراء وتغيير. بل أن بعض الشباب المنتمين الي حركات يسارية كانوا يقضون الليالى في التراشق برطانات لفظية وتقليب مجموعة من الكلمات الضخمة المحفوظة ذات اليمين وذات اليسار، ويخرجون من السهرة قريرى العين ، متوهمين أنهم تمكنوا بذلك من تحليل الواقع المعقد وحل مشاكله.

هذا الاتجاه الى الافراط في اخضاع الواقع للنظرية، بدلا من اخضاع النظرية للواقع ، كما ينبغى ان يفعل أى تيار سياسى يريد حقا أن يكون له دور فعال- يبدو لى ناجما عن الاصول الهيجلية للفلسفة الماركسية. وأرجو الا ينزعج القارئ من هذه الاشارة التى قد لاتكون واضحة لدى الكثيرين، ولكنى لن أطيل في هذا الموضوع الفلسفى المعقد، ويكفى أن أشير اشارة عاجلة الى أن فكر ماركس، وهو أكبر بناء متكامل للفلسفة المادية، قد انبثق عن فكر هيجل الذي شيد أعظم بناء نظري متكامل للفلسفة المثالية، يخضع الكون والتاريخ والفلسفة والفن لاطار فكرى واحد. وكان لابد أن يؤثر هذا الاصل فى تحديد المنهج الفكرى الذى يسير عليه ماركس والماركسيون، وأن يكون منهج الرجوع الدائم الى القالب النظري الجاهز داء مستحكما فى

الفكر الاشتراكي اللاحق، يمارس تأثيره ويترك بصماته بوضوح على الممارسات العملية لمعظم التجارب الاشتراكية في الحكم.

ومن الطريف أن يقارن المرء بين هذا المنهج الفكري الذي سارت عليه التجارب الاشتراكية، وبين الاسلوب الذي تتخذ به القرارات الهامة فى قلعة النظام الرأسمالى، أعنى فى أميركا. ففى أميركا تسود فلسفة مضادة ، قوامها أن «ما ينجح عملياً هو الصحيح» (وهو المبدأ الأساسى فى الفلسفة البرجماتية ، التى هى من حيث الاصل فلسفة أميركية خالصة). ويترتب على ذلك أن العقلية الاميركية لا تسرف في التحليل النظري، ولاتعبأ كثيرا بتفسير الاحداث من خلال قوالب مسبقة ، وانما تعالج كل حالة على حدة، وتتصرف فيها تبعا لمقتضياتها الخاصة، وتشكل نفسها تبعا لكل موقف. وعلى حين أن الفكر الماركسي يسرف كثيرا فى الحديث عن قوانين التاريخ، وعن حتمية التحولات الكبرى فيه، ويصل في ذلك أحيانا الى حد تغليب النظرية على الواقع المعقد المتجدد ، فان طريقة التفكير الاميركية تنحنى مع الواقع كيفما تشكل، وتكاد في التزامها بهذا الواقع أن تلغى النظرية من الاساس.

ويؤدى الاسراف فى الفكر النظرى الى الافراط فى التنبؤ، فيبدو التاريخ وكأنه مراحل حتمية لا مفر من حدوثها. وعلى ذلك فكما انتقل التاريخ من مرحلة العبودية الى مرحلة الاقطاع، ومن الاقطاع الى الرأسمالية ، فلا مفر من أن تكون الخطوة التالية هي الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية فالشيوعية. ويصور هذا الانتقال كما لو كان قدرا محتوما لا فكاك منه، ويقتنع الماركسي المتحمس نفسه بأن هناك قوة تعلو على الافراد والانظمة والحكومات، اسمها «حتمية التاريخ»، تعمل على دفع الاحداث في الاتجاه الذي تتنبأ به النظرية. وأية مقاومة لحتمية التاريخ هذه لن تكون لها من نتيجة سوى أن ترجئ المحتوم بعض الوقت، ولكن ما سيحدث لابد أن يحدث وعلى هذا الاساس ساد التفاؤل المطلق بين الماركسيين الاوائل فى أعقاب ثورة ١٩١٧،

وكان منهم كثيرون ينتظرون اللحظة التي تسقط فيها الرأسمالية كالثمرة المعطوبة. وبرغم تقلب الاحداث وتعقد الواقع وتجاوز إطار النظرية مرارا، ظل التفاؤل هو النغمة الغالبة، حتى رأينا خروتشوف يهتف في وجه الرأسماليين الاميركيين في عام ١٩٥٦: «سندفنكم» ويتنبأ من خلال تحليلات «علمية» مبنية على قوالب النظرية أكثر مما هي مرتكزة على معطيات الواقع، أن الاقتصاد في البلاد الاشتراكية سوف يلحق بالاقتصاد الرأسمالي في عام ١٩٨٠، ثم يتجاوزه بعد ذلك بمراحل، ويسجل هذا التنبؤ الخطير في وثيقة عظيمة الاهمية، هي أعمال المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي.

كل هذا التفاؤل كان مبنيا على تلك السمة التي أشرت اليها أكثر من مرة من قبل ، وهي تحليل التاريخ من طرف واحد ، هو الطرف الذي ينتمي اليه المحلل نفسه ، وعدم حساب ردود الفعل المتغيرة والمتجددة التي يقوم بها الطرف الاخر من أجل إفساد هذا التنبؤ وابطاله . والاساس الذي يرتكز عليه هذا الخطأ المنهجي هو الاعتقاد بأن المرء يمتلك الحقيقة المطلقة ، وكل ما عداها تحريف أو انحراف أو بطلان صريح (هل هناك حاجة الى اشارة أخرى الى التشابه بين هذا الاطار الفكري وبين نظيره في الاصولية الاسلامية المعاصرة؟) ومن هنا تأتي الثقة الزائدة بالنفس، لانه لاشيء يبعث على هذه الثقة بقدر اعتقاد المرء بأن التاريخ يسير لصالحه، أو بأنه يمثل في سلوكه ارادة التاريخ ، ومادام يسير في الاتجاه الصحيح لحركة التاريخ، فماذا يضير لو حدثت أخطاء هنا أو تجاوزات هناك ؟ ولماذا يستمع الحاكم الى أصوات المعارضين أو يحترمها ، مادام يعلم أن هذه الاصوات تعارض حتمية التاريخ ، التي يجسدها هو نفسه.

ولكن المفارقة الساخرة تظهر في أن أولئك الذين كانوا دائما واثقين من امتلاكهم لناصية التطور، ومعرفتهم لاتجاه المستقبل، وتجسيدهم لحتمية التاريخ، هم الذين فشلت تنبؤاتهم، ولم تتحقق «حتمياتهم»، على

حين أن أصحاب الايديولوجية المضادة، الذين يفكرون يوما بيوم، وحادثاً بحادث، هم الذين تحكموا بصورة أكبر في مجرى التاريخ المعاصر. وهكذا كان الدرس واضحا: من يظن أن التاريخ حصان يمكن امتطاؤه، سينتهي به الامر الى أن يمتطيه التاريخ.. تعقد الحياة المعاصرة لايمكن استيعابه الا بالمزيد من المرونة، والاقلال من الحديث عن «الحتميات»، لان التاريخ في نهاية الامر ينقاد لمن يشكله، لا لمن يتشكل به.

أن سلسلة المآسي التي حدثت أمام أعيننا في أوروبا الشرقية إنما هي نموذج واضح كل الوضوح للاخطاء التي تتفاعل فيها النظرية مع التطبيق. فقد كانت في النظرية ذاتها ثغرات، حاولنا أن نكشف هنا عن بعض من أهمها، هي التي فتحت الباب للاخطاء الفادحة في التطبيق. ولم يعد هناك مجال للقول إن النظرية تظل محتفظة بعصمتها وقدسيتها ، وأن من يتبنونها هم وحدهم المدنسون . فلا مفر من العودة الى الجذور، وإستئصال ما جف منها وما ذبل.

وفي تصوري أن جورباتشوف، الذي ينتمي الى جيل لم يشارك في الاحداث الرائدة الاولى، ولم يغرق في جدليات الثورة العالمية أو الثورة المحلية، هو أول زعيم ينظر الى الاشتراكية بوصفها هدفا انسانيا رحبا، يمكن أن يتخذ أشكالا متباينة، ولا يتعين حصره في قالب واحد. ومن المؤكد أنه أدرك أن العناد المفرط والثقة الزائدة التي كان يتصرف بها أولئك الذين كانوا يعتقدون أن «حتمية التاريخ» تعمل لصالحهم، هو الذي يمكن أن يقضي على التجربة من أساسها. فجميع تصرفاته تدل على أنه يدعو الى ادخال عنصر المرونة في النظرية نفسها، الى جانب العنصر الانساني في التطبيق.

الفصل الخامس

هل ثبتت رؤية هلال الرأسمالية؟

في كل مجتمعات العالم تحدث تغيرات، وكثير من هذه التغيرات يسفر عن تحولات جذرية في بنية المجتمع. ومع ذلك فان التغيرات التي حدثت خلال العام الماضي في بلدان الكتلة الشرقية هي التي اثارت اهتمام العالم بوصفها ايذانا بمرحلة جديدة في تاريخ البشرية، وهي التي حفزت الكتاب والمعلقين الى تجنيد أقلامهم وحشد أذهانهم في محاولة للاهتداء الي معالم في ذلك الطريق الذي اصبحت العواصف تغلفه بالضباب من كل جانب. وربما كان أحد اسباب هذا الاهتمام، ذلك التماسك الشديد والصلابة الفائقة التي كانت تبدو عليها اوضاع الكتلة الشرقية ولست أعني بذلك أن الانظمة الحاكمة في تلك البلاد كانت تستند الي جبهة داخلية قوية، وانما الذي اعنيه ان هذه الانظمة رتبت اوضاعها بحيث تظل متمسكة بالسلطة الى اجل غير محدود، واستبعدت منذ البدء اليات التغيير السلمي للجهاز الحاكم. ومن اجل هذا السبب بالذات، كان من الطبيعي ان تبدو اية محاولة لتغيير السلطة، كما حدث في الاونة الاخيرة ، انهياراً للنظام باكمله.

لقد تعرض العالم الغربي في العقود الاخيرة من تاريخه لتحولات كثيرة، منها على سبيل المثال وقوف دول اساسية فيه، كفرنسا

واسبانيا، موقفا سلبيا من المشاركة العسكرية في حلفه العسكرى الاكبر، حلف الناتو «شمال الاطلنطى» بعد ان حكمتها في السنوات الاخيرة احزاب اشتراكية ديمقراطية . بل أن العالم الغربى شهد حالات تحول من النظام الراسمالي الى نظام ماركسى صريح ، كما حدث في شيلي عند فوز الليندى في أوائل السبعينات. وفى الولايات المتحدة نفسها ، شهد النظام الراسمالي إنهيارا خطيرا خلال الازمة الاقتصادية الكبرى عام ١٩٢٩، وترتبت على هذه الازمة كوارث اقتصادية هائلة دامت سنوات عديدة ولحقت اضرارها جميع البلاد المرتبطة بالنظام الراسمالي. وكانت أوسع التحليلات انتشارا تؤكد ان هذه الازمة ليست عارضة على الاطلاق، وانما هي تعبير عن خلل متاصل في بنية النظام الراسمالي ذاته.

ومن السهل ان يدرك القارئ ان شبح هذه الازمة مازال مخيما على العالم الرأسمالي حتي يومنا هذا.

بل أن ظهور الانظمة الفاشية والنازية في ايطاليا والمانيا واليابان واسبانيا في فترة ما بين الحربين العالميتين ، وكثير من نظائرها وامتداداتها في دول العالم الثالث منذ الحرب العالمية الثانية، هو في رأى الكثيرين تعبير عن ازمة هيكلية في النظام الراسمالي، ومحاولة غير موفقة للخروج من إسار الازمة ، خلاصة القول ان مايمر به العالم الاشتراكى من مشكلات خطيرة ليس هو الحالة الوحيدة لظهور أزمة عميقة فى هيكل نظام عالمى رئيسي. ومع ذلك فان الاذهان قفزت مباشرة، في هذه الحالة الاخيرة بالذات، الى استنتاج سريع هو أن التجربة الاشتراكية كلها قد أفلست، وانها لم تكن منذ البدء الا حالة عارضة او « وعكة » اصابت قطاعا من البشر وسرعان ما تزول ليعود العالم كله رأسماليا كما كان قبل ١٩١٧ . فلماذا يصدر المحللون احكاما كهذه الان ، بينما لم يقل احد (باستثناء بعض الماركسيين) ان بناء النظام الرأسمالي ذاته كان لابد ان ينهار بعد الكساد العظيم في ١٩٢٩. أو أن الرأسمالية لابد ان تنبذ لانها افرزت، بشكل مباشر او غير مباشر ، انظمة دكتاتورية كانظمة هتلر وموسوليني وفرانكو وسالازار؟

اغلب الظن أن الرد على هذا التساؤل يكمن في تلك المرونة الهائلة التي تواجه بها الرأسمالية أزماتها، وفي قدرتها الفائقة على إعادة التكيف بعد كل مأزق خطير تقع فيه، على حين أن الانظمة الاشتراكية

تجمدت وتحجرت الى حد بدت معه وكأنها إما أن تحافظ على أوضاعها دون تغيير، وإما أن تنهار انهيارا تاما.

وفى وسعنا أن نوضح الفارق بين الاثنين بالمقارنة بين كرة الطاولة (البنج بونج) والبيضة. فالاولى تقفز وترتد سليمة اذا اسقطت او ضربت، والثانية تتكسر وتسيل بمجرد ان تصطدم قشرتها بأى جسم صلب. وبالمثل فكما ان الرأسمالية تستطيع ان تتخذ ألف شكل وشكل، وتظل مع ذلك رأسمالية، فان الاشتراكية كما طبقت في اوروبا الشرقية لم تكن تستطيع التخلى عن طابعها الثابت والمتصلب الا اذا عرضت بقاءها واستمرارها للخطر.

وفى تصوري أن هذه السمة بالذات كانت جزءاً أساسيا من خطة الاصلاح التي وضعها جورباتشوف وحرص على تطبيقها في دول اوروبا الشرقية ، ومهد لها بقبول هذه التحولات العنيفة. فلماذا لاتصبح الاشتراكية بدورها نظاما مرنا، يقبل التطور ويتكيف وفقا لمتطلبات العصر؟ ولماذا تحمل الفرنسيون والالمان الغربيون والاميركيون مظاهرات ١٩٦٨ العارمة، التى شارك فيها الملايين من الطلاب والمهنيين والعمال، وظل نظامهم في أساسياته سليما ، بينما تضطر الجيوش السوفياتية الى التدخل كلما حدث اضطراب واسع الابعاد في أى بلد اشتراكي؟ لماذا لا تتخذ هذه البلاد لنفسها اليات تسمح لها بامتصاص سخط الجماهير على انظمتها ، اذا ارتكبت اخطاء فادحة ، وتتيح لها تصحيح مسارها واكتساب ثقة هذه الجماهير من جديد؟

لماذا يسود دائما هذا البديل الانتحاري: اما بقاء كل شئ على حاله بقوة السلاح، واما انهيار كل شئ؟ من المؤكد ان اعلان جورباتشوف الصريح ان جيوشه لن تتدخل لمساندة أى نظام يثور عليه شعبه، وإشاراته الواضحة الى انه لن يؤيد القيادات الستالينية المتحجرة، بل ومشاركته الايجابية، على ما يقال- فى إزاحة بعض هذه القيادات، مع ادراكه للنتائج الخطيرة التى يمكن أن تترتب على ذلك . وفى المدى القريب على الاقل ، بالنسبة الى وحدة المعسكر الاشتراكي وتماسكه- كل هذا دليل على أن سياسته تسعى الى ان تضيف الى التجربة الاشتراكية عنصرا هاما تتفوق عليها فيه الرأسمالية تفوقا ملحوظا : وهو عنصر المرونة في اختيار الشعب للجهاز الحاكم، وتبنى اليات التغيير السلمي للحكومات، دون حاجة كسر القشرة المتصلبة. وبطبيعة الحال فان الكثيرين قد هللوا وصفقوا لهذا التحول الذى بدا في ظاهره

تراجعا خطيرا، وكان لسان حالهم يقول: ألم نقل لكم ان الاشتراكية بدعة زائلة ؟ هاهي ذي تقتبس اهم مبادئ الحكم والسياسة من العالم الرأسمالي، وتتراجع عن طابعها «الشمولي». الذي كان اهم سماتها المميزة. فماذا يتبقى بعد ذلك من الاشتراكية؟ على أننا سنرجئ مناقشة الشطر الاخير من هذا السؤال ، واعني به: هل يتبقي من الاشتراكية شئ اذا اتبعت آليات التغيير الديمقراطي المعروفة فى الرأسمالية- سنرجئ هذه المناقشة حتى الفصل التالى . اما الان ، فلزام علينا ان نناقش الشطر الاول، واعنى به دلالة اقتباس الاشتراكية لمبادئ هامة تنتمي الى صميم التجربة الرأسمالية.

ان الحكم على موضوع الاقتباس هذا، ينبغى ان ينظر اليه في سياق اوسع ، نتأمل فيه مليا تلك العناصر العديدة التي سبق للرأسمالية ان اقتبستها من النظام الاشتراكي. ذلك لان النظام الرأسمالي قد عدل هيكله مرارا ، وفى كل مرة كان يدمج فى داخله مبدأ من المبادئ التى تنادي بها الاشتراكية، ولكن بعد تعديله بحيث يلائم اطاره العام . ولاشك اننا قرأنا كثيرا عن تلك الفوارق الهائلة بين الرأسمالية المعاصرة، وبين رأسمالية القرن التاسع عشر التى تنبأ كارل ماركس بانهيارها، بوصفها مرحلة فى التاريخ ادت مهمتها واصبح من الضرورى تجاوزها الى مرحلة أرقى ، وفى معظم الاحيان يشار الى هذه الفوارق بوصفها دليلا على اخفاق تنبؤات ماركس عن انهيار الرأسمالية الحتمى من جهة، وعلى قابلية الرأسمالية للتكيف والتطور من جهة أخرى. ولكن السؤال الحاسم فى هذا الصدد هو: هل جاءت هذه التطورات الهامة من قلب الرأسمالية نفسها، اعني هل من طبيعة هذا النظام ان يطور نفسه بحيث يعطى العمال مزيدا من الحقوق، ويضمن لهم نصيبا. يقل او يزيد- من التأمينات الاجتماعية والصحية ، ويتبع في سياسته الاقتصادية والاجتماعية قدرا- يقل او يزداد ايضا- من التخطيط، الخ؟ الواقع ان التعديلات والتصحيحات التى ادخلها النظام الرأسمالي على مساره، كانت في جوهرها ردود فعل على وجود نظام مضاد..

وليس معنى ذلك ان الخوف من ذلك النظام المضاد هو وحده الذي دفع الرأسمالية الى تطوير نفسها، بل ان هذا التطور قد حدث من أجل قطع الطريق على اية دعوة الى شكل من أشكال الاشتراكية بين عمال البلاد الرأسمالية، ومن أجل تقديم نموذج يبدو في نواح كثيرة، أكثر

ازدهارا من النظام البديل، واذا كنا قد توسعنا من قبل في الحديث عن سباق التسلح بوصفة وسيله بارعة- وقاتلة- ابتكرها النظام الراسمالي من اجل ايقاف نمو الاشتراكية ، وقلنا ان التنافس في ظل هذا السباق كان امرا استحال على ماركس ان يعمل له حسابا في نظريته ، فان ما نتحدث عنه الان ، اعني قدرة الرأسمالية على تصحيح مسارها بتبني بعض مبادئ النظام الاشتراكي من أجل اسقاط دعوى الاشتراكية بانها هي التي تمثل مصالح العمال في كل مكان ، كانت بدورها تطورا لم تعمل له النظرية الماركسية حسابا. فقد افترضت هذه النظرية ان الحركة الاشتراكية ستنشط وتنمو وتجتذب مزيدا من عمال البلاد الرأسمالية يوما بعد يوم، بينما تظل الرأسمالية على ما هي عليه ، وتسعى الي امتصاص اكبر قدر من « فائض القيمة » من العمال ، لان الافعى لا تمتلك الا أن تكون سامة. غير أن النظام الرأسمالي استطاع أن يواجه هذا الهجوم ببراعة ، وأن يطور نفسه في مواجهة انواع عديدة من الازمات ، وتخلى عن عناصر كثيرة من تلك الرأسمالية التى كتب عنها ماركس، ولكنه كسب في مقابل ذلك قدرة كبيرة على الصمود والبقاء.

والخلاصة إذان أن ما استعارته الرأسمالية من الاشتراكية ربما كان يفوق بكثير، في تنوعه واتساق نطاقه، كل ما يبدو أن الاشتراكية تستعيره الان من الرأسمالية.

ومع ذلك فان أجهزة الاعلام الغربية لا تصور ما يحدث الان على انه مرحلة تصحيح فيها الاشتراكية مسارها، تماثل عشرات المراحل التى سبق للرأسمالية أن صححت فيها مسارها باستعارة عناصر من الماركسية ذاتها، وانما تصوره على انه انهيار وسقوط نهائي للاشتراكية. فاذا كانت الايديولوجية تسقط بمجرد أن تستعير عناصر اساسية من ايديولوجية أخرى، فلماذا إذن لم تسقط الرأسمالية الحالية التي تحمل سمات لن يستطيع ادم سميث ، لو بعث حيا من قبره، أن يتعرف على رأسماليته التقليدية في سمة واحدة منها؟

إن الرأسمالية لو كانت قد تركت لنفسها، دون وجود ايديولوجية منافسة تملك تأثيرا دوليا كبيرا، وتمارس تأثيرها ايضا على الطبقات العاملة والمثقفة داخل الدول الرأسمالية ذاتها- لما سار تطورها في اتجاه تحقيق مصالح للعمال ، كما يحدث بالفعل في البلاد الصناعية المتقدمة. وأبسط دليل على ذلك ما تمارسه الرأسمالية من استغلال بشع

للعمال والفلاحين الفقراء في بلاد العالم الثالث . فحين تفتتح احدى الشركات متعددة الجنسية مصنعا في بلد فقير، تكون شروط العمل في هذا المصنع، وليس الاجور فحسب، أسوا بما لا يقاس من نظائرها في مصانع البلاد المتقدمة. وحسبنا أن نشير هنا الى الفرق بين مصانع شركة «يونيون كاربايد» في أميركا نفسها والمصنع الذى كان تابعا للشركة نفسها في الهند، حيث وقعت حادثة تسرب الغاز السام المشهورة في مدينة «بوبال» منذ سنوات قلائل، وتساقط المئات من العمال وأسرهم كالذباب، ووقف أصحاب الشركة يدافعون عن انفسهم بوقاحة أمام راي عام عالمي ساخط، ويستأجرون أبرع المحامين حتى لا يدفعوا إلا أقل القليل من التعويضات لاهل البلدة المنكوبة. وقل مثل هذا عن أية مقارنة يجريها المرء بين أوضاع العامل الزراعي الابيض في أية مزرعة من مزارع الجنوب الاميركي ، وأوضاع العمال التعساء الذين تقوم «شركة الفواكه المتحدة» بتشغيلهم بابخس الاجر، وفى أسوا الاوضاع ، لكى تكسب هي الملايين من مزارعها فى جواتيمالا وهندوراس وغيرها من «جمهوريات الموز» التعيسة فى اميركا الوسطى.

ولو أمعنا النظر في هذه المقارنة ، لتبين لنا أن الفارق الوحيد بين الحالتين هو أن العمال لديهم في الحالة الاولى من الوعي ما يسمح لهم بالكفاح الفعال من أجل حقوقهم ، فلا يجد النظام مفرا من إرضائهم. أما في الحالة الثانية فان تعاسة العمال وفقرهم وأميتهم، وتعرضهم الدائم لبطش الانظمة الدكتاتورية التى تفرضها الشركات الاميركية العاملة في أراضيهم، كل ذلك يجعل صوتهم غير مسموع، وما دام خطرهم ضئيلا فلماذا ترهق الرأسمالية نفسها بتحسين أوضاعهم؟

على أن الرأسمالية تعيش منذ أواخر عام ١٩٨٩ فترة ترتفع فيها معنويات انصارها الى السماء، ويتغزل فيها الكثيرون، وينادي الكتاب، الذين لم يكونوا يجرؤون حتى عهد قريب على الدفاع صراحة عنها، بأنها هي النظام الطبيعي للانسان ، أو هي النظام السوي، وكل نظام آخر هو انحراف لابد، مهما طال الزمن او قصر، ان تشفى منه المجتمعات التي يشاء سوء حظها ان تقع فريسة له . ولامفر للمرء، حين يجد ان هذا الغزل المكشوف قد تجاوز حدوده ، من أن يعود إلى تذكير الناس بأبسط البديهيات التى يبدو أن انفجارات اوروبا الشرقية قد افقدتهم الوعي بها.

إن المهللين للرأسمالية، بوصفها النظام الطبيعي الذي منه بدأ

عصرنا الحديث واليه يعود، يصفقون ابتهاجا لسقوط الامبراطورية الشيوعية. وقد اوضحنا في الفصل السابق ان كثيرا من العناصر التي انتهجتها المجموعة الشيوعية كان يستحق السقوط بالفعل، وان انهيار ممارستها القمعية امر لاينبغي ان يأسف له اي انسان مستنير. ومع ذلك فاننا نحن نتحدث في هذا الصدد عن «امبراطورية شيوعية» نستخدم الكلمة بمعنى مجازي، على حين ان الرأسمالية كانت لها امبراطوريات بالمعنى الحقيقي، والدموي، وهي امبراطوريات لم تكتف باخضاع شعوب العالم الثالث لهيمنتها، وانما امتصت دماءها طوال قرون عديدة، وقتلت من ابنائها عشرات الملايين، وخاصة في المناطق المجهولة والمنسية كافريقيا السوداء، وأوقفت نموها وزرعت التخلف والاعتماد على الغير في مجتمعات كانت لها، قبل العهد الاستعماري، حياة كريمة مكتفية بذاتها الى حد بعيد.

هذه بديهيات معروفة ، ولكن المرء يجد نفسه مضطرا الى التذكير بها في مرحلة التزييف الفكري التي نعيشها في ايامنا هذه ، وفي زمن خروج الجرذان من الجحور بعد بيات شتوي طويل. فهل يكون من حقنا، ونحن نستنكر الاستبداد الذي كانت تمارسه الانظمة الشيوعية الحاكمة على شعوب رومانيا او بولندا أو المجر، ان نصل الى حد ننسى معه فظائع الاستعمار، الذي هو الابن الشرعي للرأسمالية ، في الكونغو وكينيا وانجولا وبقية القارة الافريقية ومعظم بلاد آسيا؟ هل من حقنا ان ننسى وجود امبراطورية اميركية بكل معاني الكلمة، حتى عهد قريب، فيأميركا اللاتينية؟ هل من حقنا ان ننسى ان الرأسمالية لاتزال حتى هذه اللحظة تمارس اساليب الاستعمار التقليدى فى غزو الجيوش الجبارة لبلاد صغيرة مغلوبة على امرها مثل جرينادا وبنما حيث يتداخل القهر الاستعماري مع الاستغلال الاقتصادى مع استخدام عصابات المرتزقة مع فرض ابشع انواع الدكتاتورية العسكرية؟ الحق ان المرء يحار في تفسير الاهتمام المفرط بالمصير الذي حل بأوروبا الشرقية على ايدي الشيوعيين ، والتجاهل التام لمصير بلاد العالم الثالث على ايدي الرأسمالية.

أيكون ذلك راجعا الى أن الاوروبيين شعوب راقية ، لايصح أن تهان أو تظلم ، على حين أن الافريقيين والاسيويين والاميركيين اللاتينيين ملونون أو متخلفون ، لاتجوز عليهم الرحمة ، ولا تنطبق عليهم مواثيق حقوق الانسان؟

إن للمرء كل الحق في ان ينتقد بشدة الاوضاع الجائرة التي فرضتها الاحزاب الشيوعية على أوروبا الشرقية. غير أن الخطورة الحقيقة تكمن في القفز من هذا الانتقاد الى الثناء العاطر على الرأسمالية . فهذه نقلة غير جائزة ، وخاصة بين شعوب العالم الثالث التي اكتوت ومازال، بنار الاستعمار وتسلط رأس المال.

وحقيقة الامر أن الرأسمالية تظل ظالمة وغير انسانية، بغض النظر تماما عما يحدث في الكتلة الشرقية.

لامفر في وقت تغيم فيه الرؤية وتغيب الحقائق الواضحة ، من أن نواصل التذكير بالبديهيات. فالانظمة الشيوعية قد اخفقت في ان توفر لمجتمعاتها مستوي جيدا من الغذاء... هذا خطأ فادح بلاشك. ولكن أيهما اكثر شرا : ذلك النظام الذي يصل الخلل والاهمال فيه الى حد العجز عن الوفاء باحتياجات أساسية للبشر، أم ذلك النظام القادر علي أن ينتج ما يفيض عنه، ولكنه يحرق الحليب والزبد، ويلقي بفوائض المواد الغذائية الى البحر حتى لا تنخفض اسعارها؟ اننا لانشير هنا الى ما كان يحدث في اميركا ايام الكساد العظيم في اواخر العشرينات فحسب، بل الى ماحدث في اواخر الثمانينات، وفي قلب السوق الاوروبية المشتركة، وفي الوقت ذاته الذي كان مئات الالوف فيه يموتون جوعا في القارة الافريقية. ومع ذلك فان هذا العيب في حالة النظام الرأسمالي، ليس ناجما عن سوء ادارة او اي خلل طاريء، وانما هو جزء من طبيعة النظام وألياته وبنيته الاساسية.

هل نواصل التذكير ببديهيات اخري، فنقول ان الحريات، التي كانت مكمن الضعف في اسلوب الحكم السائد في المنظومة الاشتراكية كلها، ليست مكفولة في قلاع الرأسمالية الي الحد الذي يتصوره ذوو النوايا الحسنة ، وان هناك ضروبا من الازدواجية تشوه الصورة التي تبدو للسذج ناصعة البياض كازدواجية الرفاهية التامة في جانب والبطالة واسعة النطاق في جانب آخر، وازدواجية السيطرة التامة للاقوياء وعدم الامان للضعفاء ، وازدواجية منح الحريات في الداخل وسلب الحريات من الدول الواقعة تحت السيطرة في الخارج (تايلاند، الفلبين، الخ)... وازدواجية الابيض والملون، والمساواة النظرية في الفرص من ناحية، وانعدام وجود تكافؤ حقيقي للفرص من ناحية اخرى؟

ولو اصر المهللون للرأسمالية علي الغاء ذاكرتهم ، ونسيان التاريخ، والتغافل عن الكوارث التي انزلتها الرأسمالية بالعالم الثالث عامة،

والمصائب التي جرتها «بركات» الرأسمالية علي العالم العربي بوجه خاص ، لتولت قلعة الرأسمالية الكبرى في العالم المعاصر، بدلا منا، مهمة تنشيط ذاكرتهم وايقاظ وعيهم، فقد جاء الغزو الاميركي لبنما تنبيها للغافلين. وبقدر ما تعي ذاكرتي من احداث سياسية على مدي العقود الاخيرة ، فاني لم اصادف في حياتي تصرفا اغبى من هذا الغزو. ففى الوقت الذي كانت فيه احداث اوروبا الشرقية تصل الي درجة الغليان، وفى الوقت الذي بدا فيه للكثيرين ان اكتشاف عيوب فادحة في ممارسات الانظمة الاشتراكية، وسقوط اقوى رموز هذه الانظمة، يعنى ان الرأسمالية هي البراءة والطهارة. وفى المال والمصير . فى هذا الوقت بالذات، تأبى الولايات المتحدة الا ان تذكر الغافلين بأن الديمقراطية التي تسهر الرأسمالية على حراستها لها ايضا انياب ومخالب (مع الاعتذار لروح الزعيم العربي الذي ابتكر هذا التعبير البليغ)، وتتطوع بتقديم خدمة كبرى للايديولوجية المضادة التي كانت في هذه اللحظة بالذات تمر بأسوا مراحل ازمتها ، وتتكفل، مشكورة- بتكذيب الاصوات التى انتهزت فرصة الازمة لكي تهتف: الرأسمالية هي النظام الطبيعي للانسان ! فهل كان من المحتم غزو بنما لاسقاط نورييجا في هذا الوقت بالذات؟ وهل يساوى نورييجا الثمن الفادح الذي دفعته اميركا من سمعتها، والمكسب الذي هبط على جورباتشوف من السماء في أحرج اوقات ازمته؟ غباء منقطع النظير، دون شك، ولكنه افادنا فائدة لا تقدر، لانه اعاد الي العقول الغافلة اتزانها، ونبهها الي حقيقة بسيطة عظيمة الاهمية، هى أن خطايا أحد المعسكرين العالميين لا تعنى أن المعسكر الاخر هو الفضيلة المجسمة ، وهو الملجأ الاول والملاذ الاخير.

والحق أن كبريات الدول الرأسمالية في عالم اليوم لا تشارك هؤلاء «المعجبين» تفاؤلهم. فهناك نوع من القلق الخفي يستشفه المرء من ثنايا تصريحات المسؤولين في هذه الدول، وان لم يكونوا يكشفون عنه بوضوح، حرصا منهم على ان يتركوا احداث اوروبا الشرقية تتفاعل الي اقصى مداها . ففرنسا تخشي من عودة الوحدة الي المانيا، ذلك الجار العملاق الذي اذاقها ويلات اربع حروب كبرى خلال القرنين الاخيرين. واوروبا الغربية ككل ترى الحل فى مزيد من التوحد من أجل امتصاص خطر العملاق الالماني ، ولكن انجلترا لا ترتاح الي وحدة «القارة». واميركا تشعر بان اوروبا الموحدة ستكون قوى منافسة لها،

وليست بالضرورة متحالفة معها، لاسيما وان التحالف العسكرى قد فقد مبرر وجوده حين لم يعد هناك خصم عدواني يقوم الحلف من اجل مواجهته. وهكذا فان المعسكر الرأسمالي يشعر في داخلة بانه هو ذاته مقبل على تغيرات لايستهان بها، قد لاتتخذ طابع العنف كتلك التي حدثت فى أوروبا الشرقية ، ولكنها ستكون قطعا عميقة الجذور.

فالرأسمالية بدورها لابد ان تغير مسارها تغييرات حادة حتى تتمكن من مواجهة الاوضاع الجديدة في عالم منزوع السلاح. واذا كنت قد تحدثت من قبل باستفاضة عن نزع السلاح المادي ، وتاثيره الهائل، الذي بدأ يظهر منذ الان في صورة شركات ضخمة للاسلحة تغلق ابوابها او تسرح عمالها، فلنتذكر جميعا اهمية نزع السلاح المعنوي. ان على الرأسمالية ان تعيد تكييف اوضاعها بحيث تلائم عصرا لن تعود فيه قادرة على انتقاد الاشتراكية بحجة انها عدوانية تكبت الحريات وتلغى فردية الانسان، مع ان هذا الانتقاد هو الزاد المعنوي الذي عاشت علية الراسمالية طويلا، وكسبت بفضله عددا لايحصى من الأصدقاء. ولكن ماذا سيكون حالها حين تفقد هذا السلاح بدوره، وحين تبدأ الايديولوجية الخصم في سلوك ذلك الطريق الشاق والطويل الذي يؤدي الي الجمع بين الاشتراكية والانسانية في مركب واحد؟

لاشك في أن لون الحياة أمام الرأسمالية لن يكون، كما يتصور الكثيرون، ورديا. فهي بدورها مؤهلة لتغييرات حاسمة فى هياكلها الاساسية، ولكن هذا يتوقف بالطبع على مدي نجاح الايديولوجية المضادة في الجمع بين الاشتراكية والنزعة الانسانية، وهو موضوع بحثنا القادم.

الفصل السادس

صورة المستقبل

العالم كله يتحدث اليوم عن مفاجآت غير متوقعة، ويرسم لعقد التسعينات صورة تختلف جذريا عن جميع العقود السابقة، بل يذهب البعض الي حد القول ان القرن الحادي والعشرين بدأ بالفعل منذ ١٩٨٩، مثلما بدأ القرن التاسع عشر مبكرا منذ الثورة الفرنسية في ١٩٨٩، وبدأ القرن العشرون متأخراً منذ الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤- وهي فكرة معقولة اذا اخذنا في اعتبارنا أن نقاط التحول الحاسمة في التاريخ البشري لا يتعين أن تتفق مع السنوات التي تبدأ أرقامها بأصفار . ومع اعترافنا بأن المستقبل يحمل في طياته مفاجآت كبيرة، وبأن التحولات الهائلة في الشهور القلائل الاخيرة تمثل بذرة خصبة لتغيير وجه العالم بأسره في المستقبل غير البعيد، فلابد من الاعتراف ايضا بأن عناصر التغيير وعوامله الاساسية كانت موجودة من قبل ، وان كان العالم قد تأخر كثيرا في ادراك ما تنطوي عليه هذه العناصر من دلالات .

لقد كان التصعيد العالمي للسلاح ، وبلوغ التهديد النووي والصاروخي أقصى مداه ، هو ذاته نقطة تحول كبرى نحو إدراك عقم الشكل السائد في العلاقات الدولية . كانت صورة الموت الذي يمكن أن يلقي بظله الاسود على العالم كله في لحظة واحدة، هي ذاتها الدافع

الاكبر الى التشبث بالحياة. وكانت الخطوة المنطقية، بعد أن ادرك كل من الجانبين أنه يستطيع ان يفنى الاخر ويفنى العالم معه في ثوان معدودات، هي أن يفكرا معا في أسلوب آخر للتعامل بينهما، يحل فيه التفاهم والوفاق محل المواجهة المخيفة.

ولكن أحد الطرفين كانت له مصلحة مباشرة في استمرار هذه المواجهة ، والطرف الاخر كانت له مصلحة مباشرة في الانتقال الي حالة التفاهم. وهكذا جاءت المبادرة من جورباتشوف، وكان أعجب ما في الامر أنه فرض هذه المبادرة على ريجان في السنتين الاخيرتين من حكمه، وأرغم هذا الصقر المتصلب على التفاهم مع من كان يسميهم «إمبراطورية الشر»، لتبدأ بذلك المرحلة الاولى في التنفيذ العملى لسياسة الوفاق والتعايش والتفاهم الايجابي.

لقد كان واضحا، قبل جورباتشوف بمدة طويلة أن الرأسمالية باقية، بل إن جوانب كثيرة منها تزداد قوة. وكان واضحا أن الهدف الذي تبنته ممارسات الحركة الاشتراكية بعد ثورة ١٩١٧ مباشرة، وهو استئصال الرأسمالية بالتدريج، واحلال النظام الاشتراكي محلها، قد أصبح هدفا مستحيل التحقيق، وذلك في المستقبل المنظور على الاقل . ولكن الرؤساء المتعاقبين للاتحاد السوفياتي، على الرغم من ادراكهم هذه الحقيقة، لم يكونوا على استعداد لبناء سياستهم الرسمية على اساس الاعتراف بها ، وكان الامر يحتاج الى قدر كبير من الشجاعة من أجل اعادة رسم السياسة العامة على نحو يتلاءم مع هذا الامر الواقع، وهذا هو الدور الذي اضطلع به جورباتشوف. بل انه لم يكتف بذلك، وانما ادرك أن المعسكر الاشتراكي هو المهدد بالخطر لو استمر على جموده، ولو استمرت الفجوة بين الشعارات والممارسات الفعلية على هذا القدر من الاتساع، ولو ظل حاجز عدم الثقة، والسخط المكتوم، يحول دون تحقيق أي تجاوب بين شعوب البلاد الاشتراكية وأنظمتها . ومن هنا جاء انقلابه الكبير على جميع السياسات السابقة.

ان الكثيرين يتصورون أن جورباتشوف يهدف الى تطعيم الاشتراكية بمبادئ مستمدة من ليبرالية الغرب الرأسمالي، كمبدأ حرية التعبير وحرية الانتخاب وديمقراطية التمثيل النيابي، الخ... ولكنى أعتقد أنه أدرك حقيقة أساسية لم يدركها أسلافه، وهي أن هذه المبادئ ليست بالضرورة جزءا من النظام الفكري للغرب نفسه، وليست بالضرورة متعارضة مع الاشتراكية، كما تصور الكثيرون، وانما هي جزء من

التراث الانساني بأعم معانيه. ولقد كان الاشتراكيون المتزمتون مخطئين حين هاجموا الديمقراطية السياسية باعتبارها نتاجا غريبا بحتا، ونظروا اليها على أنها جزء لا يتجزأ من آليات النظام الرأسمالية. ذلك لان هذه الديمقراطية اذا كانت قد عبرت عن نفسها تعبيرا واضحا مع مطلع العصر الرأسمالي، فلا ينبغي أن تظل هذه النشأة مرتبطة بها الى الابد. فحق الانسان في التعبير عن نفسه بحرية ، وحقه في أن يختار ممثلين عنه يتولون الحكم أو يحاسبون الحكام ويشرعون القوانين ، هذه الحقوق تعد مكتسبات عظيمة للانسانية كلها، حتى لو كان أصلها القريب راجعا الي الغرب الرأسمالي. ومن المؤكد أن جميع التبريرات التي قدمتها الاحزاب الشيوعية الحاكمة طوال العقود السبعة الماضية، من أجل عدم تطبيق هذا النوع الرفيع من الديمقراطية السياسية، كانت تبريرات زائفة ، تستهدف تثبيت شكل من أشكال الدكتاتورية ، سواء اكانت تلك دكتاتورية حزب واحد، أو فرد يعتقد أنه يجسد الحزب والدولة كلها في شخصه، مثل ستالين أو تشاوشيسكو أو كيم أيل سونغ.

ولكن، هل تستطيع الاشتراكية ان تظل صامدة لو أصبحت ديمقراطية مستندة الى اختيار شعبي حر؟ لو كانت التجربة قد اتجهت منذ البداية نحو تحقيق هذا الهدف ، وتمكنت من بلوغه، ولو جزئيا، وعلى مراحل، وبعد مواجهة كل ما يمكن ان يعترضها من صعوبات ونكسات، لكان الرد على هذا السؤال ردا ايجابيا بلا تردد. ولكن انتقال الشعوب الى اشتراكية غير ديمقراطية بعد أن جربت طويلا اشتراكية غير ديمقراطية، هو الذي يثير إشكالات ويعقد الموقف تعقيدا هائلا. ذلك لان ثقل الماضي وأخطاءه الفادحة يشكل عاملا هاما ينبغي ان يحسب له الف حساب. فالمسألة ليست مجرد اختيار مطروح أمام هذه الشعوب، وانما هي مدي قدرتها على تصديق التحول الجديد، بعد كل احباطات التجربة القديمة ومن المتوقع ، انسانيا ، أن تكون هناك ميول قوية الى تصفية الحسابات السابقة، والى القطيعة التامة مع الماضي، وأن يكون هناك اعتقاد راسخ لدى فئات واسعة من الجماهير بأن الاشتراكية غير قابلة للاصلاح ، أو بأن الجديد لن يكون جديدا بالمعنى الصحيح ، وبأن الوعود المستقبلية لن تتحقق مادام الذين يقدمونها ممن لا تربطهم أية صلة بالعهود الماضية.

وعند هذا الموضع نستطيع ان ندرك بوضوح اكبر. أبعاد المقامرة

التاريخية الكبرى التي يخوضها جورباتشوف، فهو يقامر اساسا على الطبيعة البشرية، وعلى الزمن ، وكل من هذين العاملين يمكن ان يساعده ويرفعه الى عنان السماء، ويمكن ان ينقض عليه ويخنق تجربته ويحولها الى ماساة مفجعة.

لنبدا بالحديث عن مقامرته على الطبيعة البشرية. ان جورباتشوف لا يكف عن القول ان اهم عنصر في البيرسترويكا ، هو اعادة بناء الانسان قبل ان يكون اعادة بناء الاقتصاد او النظام السياسي. ومن الصعب في عالمنا العربي ان ياخذ احد تعبير «اعادة بناء الانسان» ماخذ الجد، بعد ان يذلته لغتنا السياسية المعاصرة الى حد لم يعد معه سوى تعبير انشائي اجوف لا يشير الى أى مضمون حقيقي، ولايغير من الواقع شيئا. ولكن جورباتشوف يعنى بالفعل بناء انسان جديد يفهم معنى الحرية ويحرص عليها ، انسان غير نمطي وغير مقولب ، يستعيد ذاته التي كان نسيانها في سبيل مصلحة «الكل»، هو فضيلة الفضائل في ظل الاوضاع السابقة، فالاعتقاد بأن البعد الاجتماعي يستنفد الانسان باكمله هو اعتقاد غير صحي، ولكن الاعتقاد المضاد بأن على فرد ان يحقق مشروعه الخاص الى أقصي مدي ممكن، بغض النظر عن تاثير ذلك في الاخرين- وهو جوهر الحلم الرأسمالي الاميركي- هو اعتقاد غير انساني. وعلى ذلك فان عملية اعادة البناء التي تستهدفها البيرسترويكا هي في صميمها استفادة للتوازن بين الدوافع الفردية والدوافع الجماعية في الانسان.

ويبدو أن جزءا أساسيا من رهان جورباتشوف يرتكز على اعتقاد صحيح من الوجهة النظرية ، وهو أن الانسان الذي عاش في ظل الاشتراكية متمتعا بالامان والضمان الذي يكفله له المجتمع، وان كان مفتقرا الى الحرية والقدرة على المشاركة سياسيا واجتماعيا، سيشعر بأن أقصي أمانيه قد تحققت لو أضيف عنصر الحرية والديمقراطية الي عنصر الامان والضمان. ولكن هذا الرهان يغفل ، من الوجهة العملية ، شيئين يمكن أن تكون لهما عواقب خطيرة: أولهما الرغبة المتعطشة في تصفية الحسابات مع الماضي، التي قد تصل الي حد الاعتقاد بان الاشتراكية. مهما اتخذت من أشكال، غير قابلة للاصلاح: فهى أشبه بمجرم يستحيل أن تقبل توبته، لان سوابقه اكثر وأفدح من أن تسمح بالثقة فيه . وهكذا فان القهر الذي مرت به الشعوب الاشتراكية يمكن أن يجعل رؤيتها متجهة الي الانتقام من الماضي أكثر مما هي متجهة الي

بناء المستقبل.

ومن ناحية أخرى فان رهان جورباتشوف على الطبيعة البشرية يغفل الجانب المادي فيها الى حد بعيد. فالرهان ينصب على الايمان بأن الشعب الذي مر بتجربة الاشتراكية ولكنه عانى خلالها من القهر، سيستعيد ثقته بهذه التجربة بمجرد ان يزول عنه القهر، ولن يقبل العيش في ظل الرأسمالية مهما قدمت له من اغراءات غير ان هذا الرهان ربما كان ينطوى على نظرة مثالية اكثر مما ينبغى الى طبيعة الانسان. ذلك لان الغرب الراسمالي يراهن على الجانب المضاد، أعنى الجانب المادي ويركز على «الحرمان» الذي تعانيه الشعوب الاشتراكية من المأكولات والملابس والاجهزة الحديثة، الخ.. ولما كان من الصعب، في المدى المنظور، ان توفر اصلاحات جورباتشوف مثل هذه السلع المادية للناس، فمن الممكن ان يؤدى ذلك الى خسارته للرهان والى تراكض هذه الشعوب وراء «الرخاء» الرأسمالي.

وهذه مسألة لا يصح ان يستخف بها من يسعى الى تكوين رؤية مستقبلية لما ستؤدى اليه بيرسترويكا جورباتشوف. ذلك لان الاغراءات المادية امر لا يمكن الاستهانة به في سلوك الجماعات البشرية. ولقد رأيت بنفسى مدي تعطش شبان وفتيات بأعداد كبيرة في الاتحاد السوفياتى وبلاد اشتراكية اخري الى اشياء تبدو في نظرنا تافهة، كالملابس «الجينز» والساعات الرقمية والمسجلات اليابانية ، الخ... ورأيت بنفسي كيف ان قطعة اللبان الاميركي او سيجارة اميركية يمكن ان تكون موضوعا للهفة الانسان في هذه البلاد ، وعجبت وقتها كيف لم يتمكن التعليم والتنشئة الاجتماعية من اقناع الناس بأن من الممكن الاستغناء عن الاشياء الصغيرة في سبيل الاهداف الكبيرة. ومازلت أذكر كيف ان معظم الضباط العرب الذين كانوا يتلقون دورات تدريبية في الاتحاد السوفياتي، كانوا يعودون غير متعاطفين مع التجربة السوفياتية ، فاذا سئلوا عن السبب كانت اجابة الغالبية الساحقة منهم تتعلق بأمور مادية، كالسيارة او الملابس او أماكن اللهو والترفيه، وندر أن تجد منهم من يحدثك عن انعدام حرية الفكر او تسلط الحزب الواحد او غير ذلك من الجوانب المعنوية.

ويمكن القول ان هذا الرهان على الجانب المعنوي او الجانب المادي من الطبيعة البشرية يشكل ساحة حقيقية لمعركة تدور حاليا في الخفاء بين المعسكرين الكبيرين. ومن الغريب حقا ان الجانب الذي توصف

ايديولوجية بانها مادية، هو الذي يراهن على متعنويات الانسان، على حين ان الجانب الرأسمالي «حامي حما الروح» و «نصير الاديان» الخ، هو الذي تركز دعايته علي ماتعانيه شعوب المعسكر الاشتراكي من نقص في الفواكه واللحوم، وعلى طوابير الخبز، وما الى ذلك من مظاهر الحرمان المادي التي يستحيل علي اي مصلح ان يوفرها لشعبه ما بين يوم وليلة، اذا كان قد أتي الي الحكم بعد مرحلة طويلة من التخبط وسوء الادارة.

ولننتقل الي الحديث عن العامل الاخر في مقامرة جورباتشوف الكبرى، واعني به مقامرته على الزمن. فكل ما يراهن عليه جورباتشوف يحتاج الى وقت. ولو تصورنا ان الاصلاح الاقتصادى، مثلا ، يمكن ان تظهر ثماره في المدي القريب لكنا متفائلين الي حد السذاجة. ذلك لان الوفر في نفقات التسلح لن يتم الا بعد وقت، وانعكاس هذا الوفر ايجابيا على الاقتصاد يحتاج الي وقت آخر، وازالة آثار البيروقراطية والجمود وسوء الادارة وفساد الذمم تستغرق وقتا لا يستهان به. ولذا فان اولئك الذين يكررون ليل نهار انهم لم يلمسوا في الاتحاد السوفياتى تحسنا في الاوضاع الاقتصادية خلال عهد جورباتشوف، لا يستهدفون من ذلك الا خداع العالم، لانهم يعلمون جيدا ان ثمار اتجاهاته الجديدة يستحيل ان تقطف الان، ويعلمون انه مازال في مرحلة خوض المعارك الضارية التي سيصبح في امكانه، لو كسبها، ان يضع الاسس لبناء اقتصاد افضل.

ومن جهة اخرى فان الاصلاح السياسي، وارساء دعائم الديمقراطية الحقيقية داخل اطار من الاشتراكية ، هو تجربة غير مسبوقة ، تحتاج الى ابداع وابتكار لانظير لهما. وحين ننظر الى ارض الواقع سنجد ان تقبل الجماهير، فى البلاد الاشتراكية، لهذا النوع من الاصلاح، يحتاج الى وقت. ولابد هنا من التمييز، كما قلنا من قبل ، بين رد الفعل في المدى القصير ورد الفعل في المدى الطويل. ذلك لان رد الفعل المباشر كان سلبيا الى حد بعيد ، وهذا امر يستطيع « أن يتوقعه اي مبتدئ فى التفكير السياسى. فالجماهير المكبوتة لابد ان تنفجر اذا ما تحررت من القوة التى كنت تكبتها. وقد اخذ جورباتشوف على عاتقه عملية التحرير هذه حين امر القوات السوفياتية بعدم التدخل، وفتح بذلك الباب امام ثورة الجماهير فى اوروبا الشرقية.

ومن المتوقع تماما في المرحلة الاولى ان تكون ردود الفعل عنيفة،

وان تعمل الجماهير على محو كل ما يذكرها بالعهد السابق، ومن هنا كان تغيير اسم الحزب الشيوعي في بعض هذه البلدان ، والغاء النص الخاص بانفراده بالسلطة في البعض الاخر، وظهور محاولات لحظر قيام أي حزب شيوعي في المستقبل . وهذا هو رد الفعل المتوقع، في مثل هذه الظروف، خلال المدى القريب، ولكن الامور لابد ان تتغير في المدى الابعد، ولابد ان يعود الاتزان الى عقول الناس، بعد ان ينفسوا عن غضبهم ويصفوا حساباتهم ، فيبدأون في البحث عن مصالحهم الحقيقية . ولاشك في ان تجربة ازالة جدار برلين كانت لها دلالة خاصة في هذا الصدد. ففي البدء تدفق اللاجئون بعشرات الالوف، وفي نيتهم ان يرحلوا بلا عودة. ولكنهم بعد ان اطمأنوا الى أن الاوضاع الجديدة ستستمر، وان وطنهم وبيتهم لن يكون بعد ذلك مكانا للقمع وخنق الحريات ووشايات الاجهزة الامنية، عاد معظمهم الى بلدهم، وبدأوا يشاركون في البناء الجديد.

ان الاوضاع التي تجتاح أوروبا الشرقية الان لن تدوم، ولابد أن يكون المستقبل شيئا مختلفا عن هذا الوضع المؤقت، وعن الوضع المهيمن السابق عليه. وليس في وسع احد أن يتصور أن بلدا مثل رومانيا ستعيش في ظل هذا التخبط الذي جعل رئيس الدولة ينقاد لظاهرة غاضبة محدودة العدد ، فيلغي الحزب الشيوعي، ثم يعود بعد يومين فيلغي الالغاء ويقرر الاستفتاء، ثم يعود بعد يومين اخرين فيلغي الاستفتاء ، هذا اسلوب غوغائي في الحكم، يستحيل أن يدوم طويلا، ولابد أن يبدأ الشعب نفسه في البحث عن مصالحه الحقيقة بعد أن تنتهي فترة تصفية الحسابات الماضية. ولكن هذه الفترة ستتفاوت من بلد الى آخر، ومن المتوقع أن تطول فترة الغضب تبعا لمدى ارهابية النظام الذي كان سائدا في كل بلد على حدة وتبعا لفداحة الثمن الذي دفعه هذا البلد في الثورة على الاوضاع القديمة.

على أن من المهم الى أبعد حد أن نشير، في صدد الكلام عن عامل الزمن هذا، الى الرهان المضاد الذي يقوم به أولئك الذين لايريدون للتجربة الجديدة أن تنجح، ذلك لان الوقت لو اتسع لكي تنجح تجربة الجمع بين الاشتراكية والديمقراطية في اطار واحد ، لكانت تلك التجربة خطرا ماحقا يمكن أن ينسف دعائم النظام الرأسمالي، في المدى الطويل، بهدوء تام، وبلا سلاح أو حرب، وفي تصوري أن الجمع بين الأمان والضمان الذي تحققه الاشتراكية، والحرية التي تحققها

الديمقراطية، حتى لو اقترن بمستوى مادي متوسط، ستكون له قوة جذب هائلة يمكن أن تؤدى مع الوقت الى غزو قلاع الرأسمالية في أوروبا على الاقل. هذا فضلا عن تدعيم الاشتراكية في نفس البلاد التي تبدي أشد السخط عليها في الاونة الحالية ، ولاشك أن القوى المضادة لهذه التجربة تعي هذه الحقيقة جيدا ولذا نراها تسعى الان بكل ما ملكته من قوة لكي تزعزع اسس هذه التجربة وهي لاتزال في مهدها، فأعداء هذه التجربة يدركون انهم، ان لم يضربوا محاولة اقامة اشتراكية ديمقراطية في اللحظة الراهنة، وهي لاتزال في موقف الضعف، فسيكون من الصعب عليهم المساس بها في أي وقت من المستقبل، بل سيكون من الصعب ايقاف مدها حتى في معاقلهم الخاصة، ومن هنا كان الرهان المضاد هو: اهدم هذه التجربة الان ، قبل أن تصبح نموذجا مغريا للجميع! ومن أجل ذلك ، كان من حق المرء أن يستنتج أن جورباتشوف لو صمد بتجربته هذه سنة أو سنتين اخريين، دون أن يحدث شئ يهدمها من أساسها، فلن تستطيع أية قوة أن تمس تجربته الجديدة التي ستكتسب عندئذ قوة جذب لاتقاوم.

ولنلخص ما توصلنا اليه حتى الان من نتائج بشأن تلك المقامرة التاريخية الكبرى التى يقوم بها جورباتشوف ، فنقول انه يراهن على تغلب الجانب المعنوي في الطبيعة البشرية ، وعلى الصمود سنوات قلائل حتى تتاح لتجربته فرصة الكشف عن امكاناتها ، على حين أن خصومه يراهنون على غلبة الجانب المادى في الطبيعة البشرية، وعلى تكديس المشاكل أمام التجربة الجديدة من أجل هدمها في أقرب وقت ممكن، أو على الاقل من أجل الحيلولة بينها وبين تحقيق ذلك النجاح الذي سيكون مؤكدا لو أتيحت لها الفرصة الكافية. ولاشك اننا نقرأ كثيرا في هذه الايام عن رغبة العالم الغربي في مساعدة جورباتشوف ، ومساندته لاصلاحاته، مما يولد لدى القارئ انطباعا بأن «الرهان المضاد» الذى اتحدث عنه هاهنا ماهو الا تعبير عن مخاوف ليس لها من أساس. ولكن هذه المساعدة والمساندة هي الوجه الظاهر لموقف الغرب، الذي تتقرر سياسته على مستويات متعددة ، منها ماهو واضح مكشوف ومنها ماهو خفي مستتر ومن المؤكد أن الغرب مضطر الي تاييد جورباتشوف بعد تلك الشعبية الساحقة التى نالها بين الشعوب الغربية ذاتها، والتي يقول البعض انها فاقت شعبيته حتى لدى شعبه هو . ولم تكن تلك الشعبية مجرد رد فعل عاطفى ، وانما كانت راجعة في المحل

الاول الي الرغبة المتأصلة في السلام، والخوف العميق من حالة الصراع المسلح التي تهدد العالم بالانفجار في أي لحظة ، والوعى المتزايد بالاخطار التى تتعرض لها البيئة على مستوى كوكبنا باكمله، وهذه عوامل ينبغي أن تعمل لها أية حكومة في الغرب ألف حساب.

ولكن لابد أن يكون هناك، على المستويات غير المعلنة، خوف شديد من أن تنجح تلك التجربة التي يمكن أن تحقق حلما عجزت البشرية حتى الان عن تحقيقه، وهو الجمع بين العدل الاجتماعي والحرية الانسانية في اطار واحد . ومن هنا فاني أومن بأن الرهان المضاد حقيقة واقعة.

ان الجميع يتحدثون الان عن عصر جديد ستؤدي سياسة جورباتشوف الى دخول البشرية فيه، عصر تتوقف فيه الصراعات الداخلية بين الايديولوجيات، لتحل محلها صراعات ضد القوى المعادية للانسان أينما كان. هذا العصر، كما يقول معظم الكتاب، هو عصر تراجع الايديولوجيا، أعني أنه العصر الذي لن يكون للصراع بين الاشتراكية والرأسمالية فيه تلك الاهمية التى كانت له منذ بداية القرن العشرين على الاقل، وانما سينصب الاهتمام كله على ماهو أهم: مشكلات البيئة التي يظهر لنا في كل يوم بمزيد من الوضوح أنها لاتحل الا على نطاق عالمي، ومشكلات السلام العالمي ونزع السلاح، وهي بدورها مشكلات تمس مصير الانسان على هذا الكوكب، ولا يمكن أن يقتصر تاثيرها على هذا المعسكر أو ذاك. واخيرا، مشكلات التكنولوجيا، التى يتيح التقدم فيها آفاقا لم تكن تحلم بها البشرية من قبل ، والتي تبشرنا منذ الان بعهد ننعم فيه بوفرة في الانتاج المادي ووفرة في المعلومات الذهنية على نحو كفيل بان يجعل عصورنا الحالية تبدو عصورا بدائية بحق.

هذه الاحتمالات الممكنة هي حديث الساعة في أيامنا هذه، وهي لم تعد أحلاما خيالية، بل أن تحقيقها بات في متناول أيدينا ، وبوادرها اخذت تظهر أمام أعيننا من الان. ومع ذلك فإننى أجد نفسى فى موقع الاختلاف مع أولئك الذين يتصورون ان عصر التعاون من أجل حل المشكلات ذات الطابع الكوني سيحل حتما محل عصر الصراع بين الايديولوجيات . ففى رايي أن حلول هذا العصر، الذي هو بغير شك غاية يتمناها كل شخص يحترم انسانيته ، لن يتحقق الا اذا نجح جورباتشوف في تثبيت دعائم تجربته الجديدة. فمازال أمامنا وقت قبل أن يكون فى وسعنا التحدث عن بلوغ البشرية سن الرشد، وانتقالها من

صراعات الاخوة الاعداء الي التكاتف من أجل مواجهة المشكلات الكونية، ولو اخفقت تجربة جورباتشوف، لكانت نتائج النكسة بشعة، ولاصبحنا أبعد عن ذلك التعاون العالمي مما كنا في اي وقت مضى.

وانا على ثقة من أن القارئ يتساءل الان: حسنا ، ماهي احتمالات النجاح؟ هذا ، في رأيي، هو السؤال الصعب حقيقة. فلكي تكون الاجابة ممكنة، ينبغي أن تكون المعطيات كلها أمامنا، وأن تكون معقولة قابلة للحساب. ولكن يكفينا مثال واحد لكي ندرك صعوبة الاجابة عن هذا السؤال. فالاضطرابات بين الاذربيجانيين والارمن، مثلا، تقوم على رواسب قديمة منها ماهو عرقي، وماهو طائفي ، ولكن كلها رواسب لا عقلية يصعب حسابها، ومن ثم يصعب التنبؤ بها. ومثل هذه العوامل اللاعقلية يمكن أن تتدخل فى أية لحظة وتشكل عقبة خطيرة في وجه التجربة الجديدة، وتثبت أن الطبيعة البشرية التي راهن عليها جورباتشوف مازالت تنطوى على عناصر ظلامية سوداء يصعب اخضاعها للحساب العقلي.

إن جورباتشوف يبدو لي احيانا قريب الشبه بأبطال التراجيديات الاغريقية ، وكثيرا ما يبدو مهددا بمأساة تحكيها قوى الشر التى لن تتنازل عن عالمها بسهولة. ولكنني أوثر الانحياز الي جانب التفاؤل في معظم الحالات: ذلك لانه إذا ظل صامدا فسوف يكسب العالم الكثير، واذا تهاوي فسوف تتهاوي معه آمال عريضة نسجتها البشرية كلها حول عصر جديد تبلغ فيه الانسانية، لاول مرة، سن الرشد .

الفصل السابع

وأين العرب من هذا كله؟

إن الحقيقة الاساسية التي توصلنا اليها التحليلات السابقة هي ان تجربة جورباتشوف، لو اعطيت الفرصة كيما تحقق امكاناتها، لابد ان تؤدي الي كسر حدة الصراع بين المعسكرين، وزوال الهوس العسكري العالمي وقيام كل طرف من أطراف الاستقطاب الدولي بتنازلات اساسية، وحدوث تغييرات حاسمة علي خريطة العالم، لا تقتصر على المعسكر الاشتراكي، كما هو حادث الان، بل يمتد تاثيرها بعمق في قلب المعسكر الرأسمالي في المدي البعيد. صحيح أن النظامين سيحتفظان بقدر غير قليل من الاختلاف فيما بينهما، ولكن الذي سيزول هو ذلك الهدف الذي ظل كل منهما يتخذه غاية قصوى لاستراتيجيته ، وهو ازالة النظام الاخر والحلول محله، سواء بالقوة العسكرية أو بالضغط الاقتصادي أو بالتغلغل والتآمر وتأليب الشعوب. فلن تعود هناك علاقة «إما قاتل او مقتول» بين الرأسمالية والاشتراكية، ولن يكون هناك إصرار على أن يسود العالم نظام واحد هو الذي يتمكن من الانتصار في نهاية الامر، بل سيسود المجتمع العالمي نوع من التعددية، مشابه لذلك الذي تحرص الدول الديمقراطية على وجوده داخل المجتمع الواحد.

ولا يقتصر معنى هذه التعددية على التعايش بين الايديولوجيات المتبادلة ، بل إنها تعنى ايضا تعددا في مراكز القوى العالمية . فمنذ

الان يستطيع المعلقون السياسيون أن يلاحظوا إمكان ظهور مركز قوى في أوروبا، التي يسمي جورباتشوف الي الاندماج فيها دون حواجز، يقف ندا أمام مركز القوي الاميركي، بينما يقابله في الشرق الاقصي مركز قوي خطير تمثله اليابان ومعها الدول الصغيرة ذات الثقل الاقتصادي المتزايد، مثل كوريا وتايوان وسنغافورة. أما الصين فمن الممكن أن تصبح مركزا قائما بذاته، بفضل وزنها السكاني الهائل، وذلك اذا نجحت في شق طريقها، ولو بقدر محدود، في عالم التقدم التكنولوجي. وكما يلاحظ القارئ، فان مراكز القوى تقفز من أقصي الغرب إلى اقصي الشرق، وتمر على ما بينهما مرور الكرام. «وما بينهما» هذا يشمل، بالطبع، منطقتنا العربية. فاين نحن من هذا كله؟ وما تاثير هذه التحولات الهائلة علينا ؟ ان موضوعا كهذا ، يمكن أن يعالج من زوايا متعددة. وسوف نختار هنا، عامدين، بعض الزوايا التى نراها أساسية في الموضوع، على أن يتذكر القارئ أن هذا الاختيار تمليه اعتبارات ضيق المكان والزمان، وأن للموضوع أبعادا أخرى عظيمة الاهمية، لابد أن يتصدى لها المفكرون العرب حتى يعينوا وطنهم على التأهب لمواجهة المتغييرات الهائلة التي سيأتي بها الغد القريب.

إن هناك انزعاجا عاما من تراجع الاهتمامات الخارجية للكتلة الشرقية ، وانكفائها الي الداخل في محاولة لاصلاح ما أفسدته سياسات جامدة، أوقفت نمو هذا المعسكر طوال عشرات السنين. ويمتد هذا الانزعاج الي سياسات التهدئة والوفاق، التي تسعى الي تجنب أي احتكاك مع المعسكر الغربى، وتسارع الي تحقيق التفاهم معه كلما حدثت أزمة في المناطق التي كان المعسكران يتنافسان فيها من قبل . ولقد كان لهذا التنافس فوائده الواضحة بالنسبة الي العالم الثالث، اذ استطاع عدد من زعمائه أن يتقنوا لعبة الحصول على المكاسب من احد المعسكرين من خلال تهديده بالتقارب مع المعسكر الاخر. بل إن مجرد وجود معسكر اشتراكي مناوئ للمعسكر الراسمالي ، الذي تنتمي اليه جميع الدول الاستعمارية السابقة، كان في حد ذاته مكسبا كبيرا للعالم الثالث، إذا انه لولا وجود هذا المعسكر، ولولا اتخاذه موقف الترقب والمواجهة إزاء المعسكر الرأسمالي، لما كسب العالم الثالث معظم معاركه التحررية، وخاصة في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية . ففى موقف المواجهة واستعداد كل من المعسكرين لارسال صواريخه النووية من أجل تدمير المعسكر الاخر، استطاعت دول كثيرة في العالم

الثالث أن تنتهز فرصة الشلل المتبادل بين العملاقين لكي تفوز بتحررها واستقلالها، فضلا عن أن المعسكر الاشتراكي ساندها بقوة لكي يحرم المعسكر المنافس من الامتيازات التي كان يجنيها من بسط نفوذه فيها .

لقد شعر الكثيرون بالجزع من جراء انتهاء وضع المواجهة هذا، وحلول التفاهم والوفاق محله. وكان من العبث أن يعزيهم بعض المفكرين من ذوى إلنزعة الانسانية العالمية بالقول ان مصالح الانسانية ككل ينبغى تغليبها على مصالح أية دول أو مجموعة من الدول، وأن الوفاق والاتجاه الي نزع السلاح مكسب للانسانية كلها. ومن ثم ينبغى تغليبه على الخسائر التي قد تحدث لهذه المنطقة من العالم أو تلك، ذلك لان منطق المصالح لايمكن اختفاؤه من العالم بين عشية وضحاها. ومن جهة أخرى فان أي وفاق يحدث بين الكبار لن يلغي الظلم والتفاوت والرغبة في تحقيق العدالة بين العالم الثالث.

وأبسط دليل على ذلك انه، فى نفس اليوم الذي كان فيه الملايين يسافرون من ألمانيا الشرقية، بعد هدم جدار برلين ، وهو كما يبدو مكسب كبير للمعسكر الغربي، كان ثوار السلفادور يهاجمون قصر الرئاسة ويتحركون كما يشاؤون في العاصمة، ويمرغون سمعة النظام الحاكم ، الذي يدافع عن مصالح المعسكر الغربي ، فى التراب، وكان ذلك تزامنا رمزيا بالغ الدلالة.

وفى اعتقادي أن المنطقة العربية ستكون من أكثر المناطق تأثرا بتلك التحولات الضخمة التي تطرأ على العلاقات بين المعسكرين الكبيرين، بل أن نتائج تلك التحولات، بالنسبة الينا ستكون مصيرية، ومن هنا فإن الامر يحتاج منا أولا الى فهم عميق لطبيعة الاحداث الحالية واحتمالاتها المستقبلية ، وثانيا الى استعداد لمواجهة التغيرات الحاسمة المتوقعة في المستقبل القريب والبعيد، لا من منظور مصلحة الانظمة الحاكمة، كما يفعل الكثيرون في هذه الايام، بل من منظور المصالح الحقيقة للامة العربية، وقدرتها على أن تجد لنفسها مكانا وسط هذا العالم الدائم التجدد.

ان النغمة العامة السائدة بين المفكرين العرب ازاء هذه التطورات الاخيرة فى الكتلة الشرقية، وما يمكن أن يترتب عليها من تغيرات في السياسة العالمية، هى نغمة التشاؤم. ولهذا الموقف ما يبرره دون شك . غير انني استطيع ان أجد عنصرا ايجابيا واحدا على الاقل يمس

جانبا هاما من جوانب السياسة العربية على الصعيد الداخلي، وأعني به انبثاق وعي عالمي حاد بأهمية الديمقراطية. وتأتى أهمية هذه المسالة من أن الفكر العربي كان يرتكب في هذا الموضوع خطأين أساسيين، أحدهما هو الاعتقاد بأن الديمقراطية فكرة غربية في الاساس، لا يصح أن نقتبسها في مجتمعاتنا الا اذا أدخلنا عليها تعديلات أساسية وربما كان الافضل في نظر البعض الاستغناء عنها كلية . أما الخطأ الثاني فهو أن الديمقراطية تتعارض مع السعى الى تحقيق العدالة الاجتماعية، وأن حاجتنا الى العدالة هى الاساس، وأن المجتمع الذي لا يبدأ بتحقيق العدالة الاجتماعية ينتهى به الامر الى ديمقراطية زائفة ، فلنتوقف قليلا لتحليل هاتين الفكرتين.

ان فى أدبياتنا السياسية العربية فكرة شائعة مفادها أن مفهوم الديمقراطية نتاج للحضارة الغربية لا يصلح الا لهذه المجتمعات، ومن العجيب أن كثيرا من فصائل اليسار الماركسي، واليمين الاسلامي، تتفق على هذه الفكرة، وكل ما فى الامر أن اليساريين يضيفون فى أغلب الاحيان صفة «الليبرالية» الى كلمة الديمقراطية ويربطون بينها وبين نشأة الفكر البورجوازى الاوروبى وظهور الرأسمالية في مطلع العصر الحديث على حين أن الاسلاميين يؤكدون الاصل الغربى «اليونانى» للفظ الديمقراطية، ويرون في هذه الفكرة نتاجا للحضارة الغربية منذ عهد أبعد بكثير، لاصلة بينه وبين تراثنا الاسلامى ، وكل هذه المقدمات صحيحة بلاشك، ولكن النتيجة المستخلصة منها، وهي أن الديمقراطية لا تصلح الا للمجتمعات الغربية، باطلة كل البطلان. وحسبى أن أذكر القارئ هنا بما قلته مرارا فى مواضع اخرى، وهو أن كل الافكار العظيمة فى العالم يكون لها فى البدء أصل معين ، وترتبط نشأتها ببيئة وظروف محددة، ثم تتجاوز هذا الاصل وتتعداه، وتصبح مكسبا للانسانية جمعاء وقد أثبتت الاحداث الاخيرة أن الديمقراطية والحريات المرتبطة بها تمثل مطلبا اساسيا لمجتمعات تمر بتجربة مضادة للرأسمالية الليبرالية الغربية، وأن زعيم الشيوعيين الحالى فى الاتحاد السوفياتى لايرى أي تعارض بين التمسك بالاشتراكية والمناداة بالحريات الديمقراطية، على عكس ماكانت تؤكده معظم فصائل اليسار في دول العالم الثالث. ولاباس هنا من اشارة سريعة، قد تبدو خارجة عن الموضوع، الى أحداث قريبة العهد، دحضت الادعاء الاخر القائل أن العالم الاسلامي لاتلائمه الديمقراطية «المستوردة من الغرب» فقد

أثبتت الانتخابات الباكستانية التي انتصرت فيها بي نظير بوتو ابنة الزعيم الباكستاني الذي وصفته جميع التيارات الاسلامية بالعلمانية، ان ذلك الشعب المسلم لم يجد أي تعارض بين عقيدته وبين ممارسة الديمقراطية، بمعناها الانساني العام، وأنه حين واتته الفرصة عرف كيف يختار بطريقة واعية ناضجة ، على الرغم من جميع الظروف الصعبة التى يعانيها.

أما الخطأ الثانى الذى كان الفكر العربى يقع فيه بشأن الديمقراطية، فهو الاعتقاد الذي شاع طويلا بأن هناك تعارضا بين الديمقراطية السياسية وما يسمى بالديمقراطية الاجتماعية، أو بين الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية. فقد انتشرت بيننا فلسفة تبناها «الميثاق» المصرى في اوائل الستينات، كما تبنتها بعض الاحزاب العربية ذات الاتجاه القومي، تؤكد إِن الديمقراطية النيابية المرتكزة على الحريات المعروفة (حرية التفكير والتعبير والعقيدة، الخ..) تظل شعارا شكليا أجوف خاليا من المضمون، مادام المجتمع مفتقرا الى تحقيق العدالة الاجتماعية. فالشعب الجاهل ، الجائع، المريض، لايعرف كيف يمارس حرياته أو يختار ممثليه، بل ان ممارسته للديمقراطية تنتهى عمليا الى سيطرة اصحاب المال والارض والنفوذ عليه، فتتحول تلك الديمقراطية اخر الامر الى خدعة ومهزلة. هكذا قيل لنا، وعلى هذا النحو كانت تفكر الاجيال الوسطى والجديدة فى عالمنا العربى. ولكن اذا لم يكن مثال باكستان الذي قدمته من قبل كافيا لاقناعنا ببطلان هذا الرأي، فان أحداث أوروبا الشرقية تمثل تكذيبا مدويا له. فمع كل عيوب الانظمة الحاكمة السابقة في هذه البلدان، لاينكر أحد أنها قدمت لشعوبها، فى ميدان العدالة الاجتماعية، أضعاف ما استطاع أي حزب أو تحالف شعبى عربى أن يقدمه لشعبه.

ومع ذلك فان هذه الشعوب ثارت مطالبة بالحرية والديمقراطية، واسقطت أولئك الذين استغلوها باسم الاشتراكية ونشروا الظلم باسم العدالة، وطالبت بحقوق قانونية ودستورية انسانية، وأكدت بأبلغ تعبير أن كرامة الانسان لا تنفصل عن آدميته ، وأنها مطلب يستحيل التنازل عنه مقابل أية مكاسب مادية تزعم الانظمة أنها تقدمها الى شعوبها.

ومن هنا فانى اعتقد أن احداث أوروبا الشرقية قد أسدت الى العالم العربى خدمة كبرى على صعيد المبادئ السياسية التي تطبق داخل المجتمع، لانها دعمت الدعوة الى الديمقراطية، وأكدت أن مطلب الحريات

التى توصف بأنها «ليبرالية» يتجاوز حدود الثقافات والايديولوجيات، وفندت المزاعم التى راجت بيننا طويلا حول التعارض بين ممارسة الحرية وتحقيق العدالة الاجتماعية، وأكدت أن القيم الانسانية العليا تسير كلها جنبا الى جنب، ومن المستحيل أن يكون الثمن الذى يدفعه الانسان مقابل سعيه وراء احداها هو تنازله عن الاخرى.

ولكن هل تؤدي تلك التغييرات العالمية ، التى بدأتها أحداث أوروبا الشرقية، الى نتائج ايجابية مماثلة على صعيد السياسة الخارجية العربية؟

الحق أن الصورة في هذه الحالة تبدو قاتمة. فهناك شعور جارف لدى العرب بأنهم فقدوا، بعد هذه الاحداث، حليفا كان يساندهم فى وقت الشدة ، وبأن اهتمام السوفيات وبلاد الكتلة الشرقية سيتركز من الان فصاعدا على اصلاح الاوضاع الداخلية المتردية أولا، ثم يتجه صوب أوروبا الغربية لتحقيق مزيد من الاندماج والتوحد معها، ويتجه الى أميركا لتهدئة أجواء التوتر معها، ولانها الطرف الذي لاغناء عنه في عملية نزع السلاح ، أما الشرق الاوسط فربما اتي دوره في المراتب الاخيرة من هذه الاهتمامات.

وفى تصوري أن هذا الاحساس بضياع حليف قوي للقضية العربية له بالفعل ما يبرره، في ضوء الاستراتيجيات العالمية الجديدة للاتحاد السوفياتي وللمعسكر الاشتراكي ككل، قبل ان نفكر في التنديد بهذا الوضع الجديد، او مهاجمة جورباتشوف الذي ادت سياسته الى هذا كله ، يتبغى ان نسال أنفسنا: هل كنا ، فى أي وقت اصدقاء حقيقيين للاتحاد السوفياتى والمعسكر الشرقي؟

الحق أننا لم ننتبه الى قيمة هذا الصديق وفائدته لنا الا بعد ان احسسنا اننا فقدناه، او بسبيلنا الى فقدانه (تماما كما يحدث في حياتنا الثقافية، حين نتجاهل الكاتب او الاديب وهو يقدم الينا عطاءه السخي خلال حياته، ولانبدأ الاحساس بقيمته الا بعد وفاته). ففى الوقت الذي كان فيه السوفيات يقدمون الينا اقصى ما تستطيع امكاناتهم تقديمه من المساعدات العسكرية مثلا، وضعنا اسلحتهم في ايدى عسكريين جهلاء مخدرين، فجاء عدونا عام ١٩٦٧ وجمعها كلها في صحراء سيناء، والحق بنا هزيمة عسكرية تاريخية، ومع ذلك القينا اللوم كله على « الروس » ، وسارت المظاهرات في ارجاء العالم العربي (بإيحاء من بعض الانظمة القائمة عندئذ) تهاجم السفارات السوفياتية

وترجمها بالحجارة.

وعندما اعتدلت اوضاعنا العسكرية في ١٩٧٣ وألحقنا بالعدو اول هزيمة حقيقية في تاريخه، لاسباب من أهمها نوعية الاسلحة التي حاربنا بها (كما اعترف الرسميون جميعا في المراحل الاولى من تلك الحرب)، انقلبنا عليه بمجرد ان تغير ميزان المعركة، وكانت الشماعة التي علقنا عليها الهزيمة الاخيرة هي ايضا «الاسلحة الروسية» وكانت القرارات السياسية المعادية للسوفيات، قبل المعركة وبعدها، استفزازية الى حد لا يتحمله من له صبر أيوب. وهكذا لم نكن نحن أصدقاء حقيقيين للسوفيات في الوقت الذي كنا ننتفع فيه بأقصى ما تسمح له مواردهم المحدودة بتقديمه.

وكما كان العرب أصدقاء سيئين، فقد كانوا ايضا أعداء سيئين: فالمفروض أن العدو الحقيقي هو السياسة الاميركية المنحازة بالكامل الى اسرائيل. ومع ذلك فبقدر ما كانت سياستنا الاعلامية تهاجم اميركا على المستوى الكلامي، كانت سياستنا الفعلية ترتمي في احضانها وتنحاز لاهدافها انحيازا يكاد يكون كليا.

وعلى ذلك، فاذا كنا اليوم نتباكي على ضياع التأييد السوفياتي، وعلى استفراد اميركا بالمنطقة ، فلابد ان أن نعترف باننا لم نكن نحمل ذرة من التعاطف مع من كان يصادقنا، أو ذرة من العداء لمن كان- ولا يزال- يعادينا، وان سياستنا السابقة تجاه الصديق السابق لاتشفع لنا لديه الان حين يجد نفسه مضطرا الى اعادة النظر في اولوياته، ولا تدفع العدو (الذي يظل محبوبا مهما فعل) الى ان يعمل لنا في استراتيجيته المستقبلية اي حساب جاد.

لقد حدثت متغيرات المعسكر الشرقي، وهي متغيرات ليست في صالحنا بغير شك، ولكننا قبل ان نلوم العالم ومتغيراته، ينبغي أن نوجه قدرا كبيرا من اللوم الى انفسنا. ويكفي أن لسان حالنا، حين نأسف على تراجع التأييد الذي كنا نلقاه من هذا المعسكر، يقول: كم من المصاعب تنتظرنا لو ضاعت منا المساعدات العسكرية والاقتصادية والسياسية التي كنا نتلقاها من هؤلاء الشيوعيين الاوغاد!

وثمة ماهو اخطر من ذلك على صعيد المواجهة العربية الاسرائيلية. ذلك لان القيادات الجديدة في اوروبا الشرقية تضم نسبة لايستهان بها من اليهود ، الذين قد يكون معظمهم متعاطفين مع الصهيونية. فوزير الخارجية المجري الحالية، جيولاهورن، يهودي لا يخفي عداوته للعرب

وهو الذي صدرت منه اولي التصريحات حول وجود عرب ضمن الشرطة السرية البغيضة لتشاوشيسكو، وهو الذي زار اسرائيل في أول رحلة رسمية له ورفض زيارة أية منطقة عربية أو التحدث مع أي زعيم فلسطيني، وزعيم الحزب في المانيا الشرقية الان يهودي، ودعاة الانفصال في ليتوانيا وأستونيا ولاتفيا يضمون نسبة كبيرة من اليهود . وهناك للاسف ارتباط قوي في أذهان الاوروبيين بين الكفاح من أجل الحرية والديمقراطية، وبين الدفاع عن اسرائيل، على أساس أن الليبراليين الحقيقيين يتعاطفون مع «الاقليات» المضطهدة (اذ لا تزال اسرائيل حريصة على نشر صورة «الاقلية المضطهدة» في وسائل الاعلام واجهزة الثقافة العالمية، التي يسيطر الصهيونيون على جانب لا يستهان به فيها).

ولكن أخطر القضايا جميعا، بالنسبة الى العرب، هي هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل، وهي الهجرة التي يأمل الاسرائيليون منها أن تعوض الزيادة السكانية السريعة للفلسطينيين، أو ما يسمونه «بالقنبلة الديمجرافية» (السكانية)، والتي انعشت آمال شامير في التمسك بالارض المحتلة قبل ١٩٦٧ وبعدها ،الى حد جعله يصدر تصريحه الاستفزازي المشهور في ١٤ يناير الماضي عن عدم اهتمامه باية حلول للقضية في الوقت الراهن لان هؤلاء المهاجرين الجدد في حاجة الى أرض جديدة واسعة، وخطورة هذه القضية لاترجع ايضا الى ان معظمهم سيكونون على مستوي علمي وتكنولوجي رفيع، فهم ليسوا مجرد «يهود جدد»، كيهود الفلاشا أو المغرب، وانما هم قوة نوعية مضافة الى المجتمع الاسرائيلي، شديدة الخطورة على المجتمع العربي .

ولست أدري كيف قبل السوفيات، في عهد جورباتشوف، معالجة قضية هجرة اليهود ضمن اطار مشكلة حقوق الانسان، فهل من الامور المسلم بها أن من حق الانسان مغادرة وطنه الى بلد آخر معاد له، يخدم استراتيجية المعسكر الاخر أعظم الخدمات؟ وهل من حقوق الانسان ان يتخلى أي بلد عن مواطنين انفق على تعليم كل منهم وتأهيله عشرات الالوف ، لكي يتلقاه بلد اخر جاهزا؟ والاهم من ذلك هل من حقوق الانسان أن تهاجر أعداد ضخمة من بلد معين الي بلد آخر من أجل إهدار حقوق انسان آخر، هو الانسان الفلسطيني، في وطنه وأرضه؟

ولنتأمل هذه القضية من زاوية أخرى، ان اختيار هؤلاء اليهود

السوفيات الهجرة الى اسرائيل بهذه الاعداد الهائلة ، دليل على فشل كبير في السياسة الداخلية السوفياتية. فمعنى ذلك ، ببساطة هو أن النظام قد أخفق طوال الاعوام السبعين الماضية في إدماجهم في وطنهم إدماجا حقيقيا، بحيث يتوحد اليهود مع الاهداف العامة للمجتمع الذي يعيش فيه، مع احتفاظه بتراثه أجيال من اليهود قد ظلت، بعد قيام أكبر ثورة في القرن العشرين، تغلب صفة اليهودي علي صفة المواطن، وبمجرد أن لاحت لها فرصة، اختارت الهجرة الى أشد البلاد عداء للبلد الذي نشأت فيه ، والذي عاش فيه آباؤها وأجدادها. ولاجدال في أن هذا أمر بالغ الدلالة بالنسبة الى رفض الطوائف اليهودية الاندماج في اي وطن تعيش فيه، على الرغم من أن امنية أية أقلية أخرى في مجتمع كالمجتمع الاميركي مثلا، هي أن تنصهر في هذا المجتمع وتتوحد معه. ولكن لهذه المسألة دلالة أخطر بالنسبة الى مجتمع خاض تجربة جديدة كل الجدة، هي التجربة الاشتراكية، وربي أجيالا على الولاء لفكرة الانسانية العالمية التي تتخطى حدود القوميات والطائفيات ، ثم اكتشف في النهاية أن قطاعا هاما من سكانه يدين بالولاء لبلد رأسمالي يعد من ألد أعدائه، ولايعترف بمبدأ المواطنة، ولا بتراث الوطن أو تاريخه أو أمانيه، ولا بالاخوة الانسانية على المستوى العالمي، بل يطغى لديه الانتماء الديني الضيق والمفعم بالاساطير على كل انتماء آخر!

ان كل متابع لتطورات الاحداث في السنوات الاخيرة يعرف جيدا مقدار الضغط الذي مارسه الاميركيون على السوفيات في الموضوع هجرة اليهود، ومدى المساومات والصفقات التي حاولوا عقدها معهم، من مساعدات اقتصادية وتجارية وتكنولوجية، في سبيل السماح بهذه الهجرة. ومع ذلك فان ادراج هذه القضية ضمن قضايا حقوق الانسان ينطوي على اهانة للعقل البشري، ولكل قيم الانسانية والتنوير التي يفترض في أية ثورة اشتراكية ان تكون وريثة لها . ان المسألة كلها فضيحة على أعلى المستويات العالمية: فضيحة لكل التجربة السوفياتية السابقة، وفضيحة للرأسمالية الاميركية التي تساوم من أجل اليهود بكل ما تملك من امكانات، وفضيحة للثقافة اليهودية التي يصفها أصحابها بأنها «انسانية»، مع انها اثبتت بالدليل القاطع أنها متقوقعة على نفسها، لاتعترف بوطن مهما كانت افضاله عليها، لان وطنها الوحيد هو الاسطورة المريضة التي هي ذاتها اهانة للانسان

الحديث... وأخيراء فهي فضيحة للعالم العربى الذي يقف صامتا امام خطر مقبل يهون الي جانبه اي خطر تعرض له من قبل!

وقد يقال: وماالذي يستطيع العرب أن يفعلوه في موقف كهذا! وردي على ذلك هو ان صورة المستقبل، في هذه المنطقة، ستكون على الارجح على النحو التالي: الوفاق بين المعسكرين يؤدى الى تراجع نسبى في تأييد المعسكر الاشتراكي (اذا ظل متماسكا) للعرب(اسيما وان مواقف العرب السابقة لا تشجع كثيرا على استمرار هذا التاييد) ولكنه لابد أن يؤدي أيضا الى تراجع في تأييد اميركا لاسرائيل. ذلك لان اسرائيل بالنسبة الى أميركا، هى فى جانب هام من جوانبها جزء من متطلبات الحرب الباردة: فهي وسيلة اميركا لضمان وجود قاعدة قوية فعالة في هذه المنطقة القريبة من الاتحاد السوفياتي، ولضمان تدفق البترول الي الغرب ، وعدم زحف الايديولوجية الشيوعية في اتجاه الجنوب، فاذا انتهت الحرب الباردة، لم يعد هناك ما يدعو اميركا الى تحمل تلك المسؤليات الجسام التي تقتضيها مساندتها لاسرائيل.

وهكذا يمكن القول أن كلا من الجانبيين، العربي والاسرائيلي لن يجد السند القوي الذي كان يرتكز عليه من قبل، وسيكون عليه أن يعتمد على نفسه وعلى قدراته الخاصة ، قبل كل شئ.

فالعصر القادم سيكون عصر تحمل المسؤليات، لدي الطرفين معا، ولابد أن يعد العرب انفسهم لذلك اليوم الذي سيكون عليهم فيه مواجهة اسرائيل بقواهم الخاصة ، وهذا ينطبق بالطبع على اسرائيل بدورها، واذا كانت اسرائيل قد قطعت اشواطا أبعد منا في العلم والتكنولوجيا، وحسبت حساب اليوم الذي تضطر فيه الى الاعتماد علي ذاتها، فان هذه الحقيقة تضاعف من مسؤلية العرب في اعداد أنفسهم لمواجهة عدو استيطاني لا حدود لشهواته التوسعية، فسوف ينتهى قريبا عصر «المواجهات بالنيابة»، وسيكون على كل طرف أن يدبر اموره بنفسه في مواجهته لعدوه.

ومع ذلك ، فان على الامة العربية أن تعد نفسها في الوقت ذاته للكفاح في ميادين اخرى غير الصراع بينها وبين اسرائيل، فعلى الرغم من خطورة هذا الصراع، لاينبغى أن نظل نرقص على الانغام التي يعزفها لنا أعداؤنا. ففى عالم الغد مشكلات اخطر من الصراعات الاقليمية، لا ينبغى أن نقف ازاءها مكتوفى الايدى. وأضعف الايمان، فى عصر الحاسب الالكتروني، والثورة الهائلة في المعلومات، وارتياد الكواكب البعيدة، هو أن يتبنى العرب قيم العقلانية والتنوير، ويطبقوها

في شتى جوانب حياتهم، ويكفوا عن تلك اللعبة السخيفة التي يربطون فيها عيونهم بعصابة سوداء. ويسيرون متخبطين وسط عالم تخلى عن لعبتهم وسار في طريق النور منذ قرون.

الفهرس

كتاب الأهالى رقم ٢٥

يصدر فى مايو ١٩٩٠

الاسلام والعرش

الدين والدولة فى السعودية

تأليف: د. أيمن الياسينى

ترجمة: سيد زهران

رقم الايداع ٣٦٣٧ / ٩٠

طبعت بمطابع شركة الأمل للطباعة والنشر
« إخوان مورفيل سابقا »
عادل الرفاعى وشركاه
التليفون ٣٩٠٤٠٩٦